تاريخ المصريين ٤١

محمد فريد
الموقف والمأساة
رؤية عصرية

د . رفعت السعيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تاريخ المصريين

٤١

محمد فريد

الموقف والمأساة

رؤية عصرية

د. رفعت السعيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩١

الإهـــداء

إلى خالد محيي الدين

عملاقاً ... والاحداث جميعاً صغار

تقـــديم

تتمثل أهمية هذا الكتاب عن محمد فريد فى الرؤ ية التى تناول بها المؤلف شخصية هذا الزعيم الوطنى الكبير . فقد تناول شخصية محمد فريد كتاب ومؤ رخون كثيرون ، كما نشرت مذكراته الهامة وأوراقه عن طريق مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر الذى أتشرف برئاسة اللجنة العلمية المشرفة عليه ، وكل ذلك أضاء كثيرا من جوانب هذا الزعيم الوطنى من الناحيـة التاريخيـة ، ولكن ذلك كله تم من خـلال رؤ ية المدرسة التاريخية التقليدية ، ولم يتم من خلال المدرسة المادية التاريخية ، وهى الرؤ ية التى يقدمها هذا الكتاب ، والتى من أجلها قدمنا هذه الطبعة له فى سلسلة « تاريخ المصريين ».

وربما لا يستطيع الكثيرون اغتفار هذا الكلام ممن يتصورون أن التاريخ ليس له غير رؤ ية واحدة هى الرؤ ية العلمية وأن الكلام عن رؤ ية فلسفية له ينقص من علميته ، وهؤ لاء يخلطون بين علم الرياضة وعلم التاريخ ، فعلم التاريخ ، كأحد أعظم العلوم الإنسانية وأكثرها صنعا للحضارة ، لا يمكن أن ينفصل عن المؤ رخ الذى يكتبه ، وهذا المؤ رخ لا يمكن أن ينفصل عن نافذته الفكرية والاجتماعية والجغرافية التى ينظر منها إلى التاريخ ، والتى تقـدم له مـا يعرف بـاسم المنظور

التاريخى وتعدد النوافذ التاريخية ، وتعدد المناظير التاريخية ـ بالتـالى ـ لا ينقص من الصيغـة العلمية للتـاريـخ ، وإنمـا يستكملهـا ، فكلما تعـددت « المناظـير التاريخيـة » كلما زادت جوانب الصـورة التاريخيـة وضوحا .

ومدرسة المادية الجدلية التاريخية هى إحدى أعظم المدارس التاريخية التى نحتاج اليها فى دراساتنا للوقائع التاريخية ، فهى تقدم نافذة فريدة لا يتسنى لأحد النظر منها للواقعة التـاريخية الا اذا كـان مسلّحاً بعلم فلسفة التاريخ ، الذى لم يعد ثمة غنى عنه لعالم التاريخ ، والذى تعتبر رؤ يته ـ بدون ذلك ـ قاصـرة عن الإلمام بجـوانب هامـة من جوانب الحدث التاريخى .

وأذكر فى هذا الصدد ، ولتوضيح ذلك ، أنه قبل أن أكتب عن التيارات اليسارية فى الحركة الوطنيـة فى دراستى للحركـة الوطنيـة فى مصـر ، لم يكن أحـد من المؤ رخـين التقليـديـين الأكـاديميين وغـير الأكـاديميين ، يـرى هذا الجـانب من جوانب الحـركة الـوطنيـة عـلى الإطلاق ، كأنما هو مـوجود ولم يقـع ولم يحدث ، بينـما كان الكتـاب والمفكرون الذين ينتمون الى المادية التاريخية لا يرون غير هذا الجانب ، ولا يشغل فكرهم سوى هذا الجانب !

والسبب فى ذلك أن النافذة التى كان ينظر منها المؤ رخون التقليديون للحركة الوطنية لم تسمح لهم برؤ ية هذا الجانب ، ولم تسمح لهم بتقديم رؤ يتهم بالتالى ! بينما كانت نافذة مفكرى المادية التاريخية لا تسمح لهم إلا برؤ ية هذا الجانب .

ثم تحول كثير من المفكرين والكتاب الذين ينتمون للمادية التاريخية إلى مؤرخين أكاديميين بعد حصولهم على درجة الدكتوراه كما أهتم كثير من المؤرخين التقليديين - في الوقت نفسه - برؤية المدرسة المادية التاريخية الجدلية ، وأصبحوا يستخدمون بعض أدواتها فتطورت الدراسة التاريخية على أيدى هؤلاء جميعا ، وانتقلت من مستوى إلى مستوى آخر ، ومن مرحلة إلى مرحلة أخرى .

والدكتور رفعت السعيد أحد هؤلاء المفكرين الذين تحولوا إلى مؤرخين أكاديميين بعد حصولهم على درجة الدكتوراة من ألمانيا واتسعت بذلك دائرة اهتماماته ، والتى كانت تنصب على الحركة الاشتراكية فى مصر ، والتى قدم فيها عددا هاما من الدراسات التاريخية ، لتشمل شخصيات تاريخية لا تنتمي للحركة الاشتراكية مثل حسن البنا ومصطفى النحاس ، وتمتد إلى أحداث تاريخية مثل الثورة العرابية .

والكتاب الذى بين أيدينا عن محمد فريد هو ثمرة من ثمرات اتساع نطاق اهتمامات الدكتور رفعت السعيد فيها وراء الحركة الشيوعية فى مصر ، فهو يتناول شخصية محمد فريد من خلال نافذته ، ويقدم رؤية له قد تتفق أو تختلف مع رؤية المؤرخين التقليديين ، ولكنها رؤية جديرة بالاحترام والقراءة والتأمل .

رئيس التحرير

د . عبد العظيم رمضان

... ليست مقدمة

لم أزل أذكره ..

ذلك الفلاح العجوز الذي كان يستند بظهره إلى جدار منزلنا وأنا طفل صغير ، ويقضي طوال نهاره ممسكاً بمغزلـــه الخشبي الصغير ليصنع من الصوف خيوطاً ....

ويدور المغزل الدؤوب ، مئات الدورات ، آلاف الدورات ليصنع خيطاً ، ومع امتزاج الصبر بالزمن تكتمل الخيوط لتصنع ثوباً .

ولا بد ان هذا الرجل كان يستشعر دفئاً خاصاً وذا مذاق مختلف من ثوب صنعته يداه .

صورة هذا الرجل لم تزل منطبعة في ذاكرتي لتذكرني بالمؤرخ .

فهو أيضاً يستند بظهره على جدار الزمن ليمزجه مع الصبر ويستخرج حقائق وكلمات ذات معان خاصة ومدلول خاص .

هذا اذا كان مؤرخاً حقيقياً .

فليست كتابة التاريخ مجرد سرد للاحداث ولا مجرد بحث عن فتات الحقائق ، ولا اجبارها على النطق بغير مـــا تريد ، وانما هي فن صياغة الحقيقة التاريخية ، « صياغتها » ليس بمعنى سردها وانما بمعنى تشكيلها كما يفعل « الصائغ » بقطعة عزيزة عليه من المعدن الثمين .

* * *

وهنا تأتي مشكلة أخرى ..

فللحقيقة اكثر من رؤية ، واكثر من زاوية .. بل وربما امكن القول في بعض الاحيان انه في اعماق الحدث الواحد تكمن اكثر من حقيقة .

وفي محاولة كمحاولتنا هذه نجد ان التناول التاريخي قد تم بالفعل ومن أكثر من باحث ، وبأكثر من زاوية ، سجل « الحدث » وجرى فحصه وصدرت به كتب عديدة وتحقق ما يمكن تسميته « بالرهن الحيازي » للواقعة التاريخية . أي ان مؤرخاً ما ، تناول ظاهرة ما ، ، وحدد معالمها ثم سجل رؤيته وطبعها كتاباً فارتهن الواقعة التاريخية في كتابه هذا ، واصبح على كل من يريد « رؤية » هذه الواقعة ان ينظر اليها من خلال كلماته هو ..

وهنا يقف الكاتب في حيرة .. ماذا يكتب ؟ هل يكرر ما

قاله المؤرخون السابقون ، ام ينتقـــده ، ام يبحث عما فاتهم من حقائق ، فيكون كمهندس يشيد دورا أعلى مبنى قديم فتحكمه قواعد التأسيس ، فلا هو سكن ، ولا هو استحدث شيئاً .

أم أن الواقعة التاريخية وقد طواها الزمن تظـــل متجددة دوماً .. أي قادرة دوماً على العطاء وعلى اتاحة الفرصة لرؤى جديدة وابداعات جديدة ؟ .

كل هذه العوامل تنازعتني وانا أفكر في الكتابة عن « محمد فريد » .

عشرات من الكتب صدرت عنه تناولت كل شيء تقريباً او هكذا خيل الينا . ومع ذلك أقرأها فأحس اكثر فاكثر انني بحاجة إلى ان اكتب عنه ، ليس مجرد اضافة أو تعليه دور فوق صرح هذه الكتابات ، وانما ان اقرأ ما كتب عنه .. ثم اغمض عينيَّ طويلاً واتوه مع ذلك الرجل الهمام في خضم حياته المتعثرة ، اعيش معه قلقه ومعاناته ونضالـــه ، استلهم اصراره الرائع ، وصموده الشجاع ثم اكتب شيئاً لم أزل استشعره احساساً غامضاً مفتقداً .. لكنني اوشك ان امسك به .

محاولاً ان اضيف رؤية جديدة تحاول ان تجيب على اسئلة كثيرة ، تتراكم فوق صدري كلما غصت عميقاً في بحر حقيقته .

* * *

والمؤرخ كصانع السيراميك . قطع السيراميك الصغيرة هي ادوات الحقيقة التي يستجمعها . لكن فنان السيراميك يستشعر الحرية الكاملة في ممارسته لعملية التشكيل الفني فمن هذه القطع قد يصنع وردة أو غابة أو حديقة .. ان خياله وقدراته الفنية تملي عليه وفي حرية تامة عملية التشكيل الفني وموضوعه ومـا قطع السيراميك سوى أدوات التشكيل . لكن المؤرخ الذي ينشد الحقيقة الكاملة ، اقصد الحقيقة الحقيقية يلتزم بها فـهـو ملتزم بأن يسير بما استجمعه من معلومات في الخط الذي تمليه هي وليس الذي يوحيه اليه خياله ..

هذا هو الفارق الكبير ..

الفنان ينساق خلف البريق الجمالي .. اما المؤرخ الصادق فهو مقيد بقيد الحقيقة .. الادوات أقصد المعلومات التي يستجمعها تقيده ، وكلما ازدادت اي كلما بذل هو جهداً اكبر في استقصائها كلما شد وثاق القيد حول نفسه .. فلا مهرب امام المؤرخ الحقيقي ، يستجمع الحقائق فاذا بتيارها يقتاده نحو الاداء التاريخي الصحيح .. وايضاً الاداء التاريخي الصحيح.. يقتاده نحو الحقيقة .

وكم يشعر المؤرخ الصادق بوطأة هذا القيد ، فقلمـه لا يستطيع الانطلاق . خطوة خطوة يسير ، اشارات ضوئية تحكم سيره ، ، تحذره ، تمنعه ، توقفه احياناً كثيرة ، فلا مجـال للانفعال او الافتعال ، ولا مجال حتى لاضافة كلمة يشتاق قلمه

ان يضيفها فهذه الكلمة قد تؤثر ولو بأقل قدر على ظل من ظلال الحقيقة يتعين ان يرتسم .. في موقع محدد بالذات .

ومن هنا كانت المعاناة الحقيقية للمؤرخ .

لا مجال عنده للعاطفة ، ولا مجال حتّى للحياد ، تيار الحقيقة التاريخية يقتاده ، وان شئنا الدقة فانه ملتزم بان يسير دفة بحثه بمنهجه العلمي الصارم مع سياق تيار الحقيقة ، والا خرجت كتاباته مفتعلة وباهتة ومجافية للحقيقة .

* * *

ولم تكن مشكلتي مع محمد فريد هي كثرة ما كتب عنه ، فلست اريد سوى ان التقط خيطاً او خيطين من نسيج نضاله كي أصوغ منهما ثوباً جديداً لعله يكون بالنسبة لي اكثر دفئاً من غيره .. ولعله يقرّب بي اكثر واكثر من عبق نضالات البطل المصري الشجاع .

وانما كانت مشكلتي معه هي صياغة « قطع السيراميك » أي « أدوات البحث » التي حاولت ان تجنح بي اكثر من مرة جنوح الفنان او جموحه تحرضني على ان اصوغ منها صورة لفارس عملاق ممتطياً جواداً جميلاً وممسكاً بسيفه ليطيح به رقاب المحتلين والخونة . .

ولعلها كانت الصورة التي تكررت في كل الكتابات التاريخية عن فريد ، ولعله يستحقها .. واكثر .

لكنني قاومت ، غالبت مشاعر الحب الدافق التي تجمعت في وجداني كمصري يحب وطنه ويمجد ابطـــاله .. قاومت ان تخرج كلماتي مجرد تراتيل في معبد المحبة الخالصة ، وحاولت ان اتماسك تجاه التيار الدافق من المودة الخاصة التي نمت بيني وبين ذكرى هذا البطل الرائع الذي اعطى واعطى كل شيء ثم مات منكوراً من ثورة شعبه ، منفياً ليس فقط عن ارض الوطن وهذا أهون الآلام وانما منفياً عن وجدان شعب وجد قادة جدداً ، وطريقاً جديداً ، فأنسته الاحداث هؤلاء الذين صاغوا بنضالهم ومهدوا بآلامهم بدايات هذا الطريق .

ولطالما توقفت عن القراءة .. وعن الكتابة محاولاً ان اجد الكلمات التي تبلور مشاعر زعيم مثل محمد فريد صاغ من فكره وكفاحه ، نبضات الحركة الشعبية المصرية في إرهاصاتها الصعبة في مطلع القرن العشرين ، فما ان ارتفع رنين هذه النبضات ، وتجسد صدى كلماته في حركة فعلية حتى وجد نفسه بعيداً عنها ..

طالما حاولت ان اجسد في ذهني صورة البطل العملاق .. راقداً في فراشه الفقير في حجرة باردة سدت نوافذها باوراق الصحف ، مريضاً بلا دواء فقيراً بلا مال ، وحيداً بلا رفيق ، هناك في ارض الغربة البعيدة يصوغ من اخر انفاسه ومن نهايات دقات قلبه آخر واول كلمة .. مصر .

مصر التي هتفت باسمه طويلاً .. وعاشت بوجدانها فـــي

محراب زعامته ثم يدور الزمن فتنساه بل لعلها تنكره .. وتسلم قيادها لزعيم جديد ..

.. زعيم جديد .. لا بأس ، اما نكران الماضي ونسيانه فذلك امر فظ لا يحتمله انسان ، وبرغم ذلك يتسع قلب فريد المتعب للمزيد من محبة شعبه ، ويبقى الزعيم عملاقاً كعادته ، يجتر آلامه في اعتزاز ، ويغفر لشعبه في اطمئنان ، ويمد يده في تواضع لاناس طالما لقنهم هو دروس الوطنية والتفاني فراوغوه يمدها فترفض ، فيمدها ثانية ، فلامجال لكرامة فرد امام كرامة الوطن . كان العملاق يبتلع الحزن والمرض ، ويرفض ان يطلب شيئاً من احد ، لاعون ولا مال ولا دواء ، فقط يريد موضعاً لقدم في حركة هذا الشعب .

لكن الزعامة الجديدة تأبى .. او تخشى .

ويموت الرجل وهو يمد يده لشعبه .. وحتى بعد ان يموت تظل يده مرفوضة . ومع ذلك يستمر الرجل وإلى آخر قطرة من حياته متفانياً في وطنه .. وتصوغ آخر انفاسه كلمة .. مصر

أي رجل هذا .. ؟

وكيف يطاوعني قلمي ان ارفض الاكتفاء بصورة الفارس التقليدية ، كيف يطاوعني أن أحلل أو أنتقد بعض مواقفه بحثاً عن الصياغة التاريخية الصحيحة ، وأملاً في الوصول إلى الحقيقة الحقيقية .. ؟

وهكذا عانيت مع فريد طويلاً .. !

وقبل سنوات عديدة .. وعندما أمسكت بالقلم لأحاول الكتابة مع التاريخ وعنه ، كنت أدرك أن التاريخ بغير منهج هو مجرد ركام من المعلومات .. مجرد قطع من السيراميك تفتقد المعرفة والمهارة لتحيلها إلى لوحة متكاملة .

ولعل التاريخ هو احد العلوم الانسانية القليلة التي يبرز دور المنهج في كل تفاصيل أدائها ، وهكذا تستطيع وللوهلة الاولى ان تميز بين كتاب او بحث يستند إلى المنهج الفردي (البرجوازي) وآخر يستند إلى منهج المادية التاريخية . وبينهما تنشأ ظلال كثيرة لكنها في النهاية تتمايز لتقترب نحو احد القطبين .. لكن ابرز هذه الظلال مدرسة تحاول ان تسمى « المدرسة الاجتماعية » وهي تعبير عن عذاب هؤلاء المؤرخين الذين يرفضون النهج البرجوازي كل الرفض او بعضه لكنهم يخشون من مغبة السير في طريق النهج الآخر خوفاً من تحمل تبعات ذات صبغة سياسية . . فيكتفون بالموقف الوسط .. وهكذا فقد رفضوا المنهج الفردي .. وخافوا من المنهج الآخر وانطلقوا فيما بينهما يحاولون رفض بعض المقولات وتبرير الاخرى .. وبرغم جهود ممتازة في البحث والدراسة أثروا بها محاولات تأريخ مصر الحديثة يظل عدم الاتساق والتردد يطلان برأسيهما من بين اسطر الكتابة . وينعكس ذلك كله على ادوات البحث وعلى اساليب العرض وممكنات الاختيار .. الخ .

ولقد يبدو هذا الكلام عاماً .. مكانه أي بحث حول مناهج علم التاريخ لكنه الح طويلاً ، وأنا افكر في كيفية اقتحام ميدان

الكتابة عن محمد فريد فالامر معقد ومربك ، وليس بالامكان استخدام ادوات القياس التقليدية الصارمة في تحديد وقياس المواقف والاراء ، وليس بامكاننا ان نظلم « الزعيم » فنخضعه لعملية تحليل منهجي صارم .. ونخضع مواقفه لعملية قياس قياسية .. كذلك فانه ليس بامكاننا ان نرهب جلال الزعامة والتفاني المخلص الذي لا نظير له فنتغاضى عن ايراد « قياسات » « وتحليلات » ضرورية حتى يستقيم المنهج ويستقر البحث على قاعدة ثابتة ، فنصل مع القارىء إلى ما يفيــد ، او بالدقة حتى استطيع انا والقارىء ان نفهم محمد فريد اكثر ، ذلك النوع من الفهم العميق والمليء بالمنحنيات والوقفات والذي يقودنا نحو محبة اعمق واعتزاز اكثر لذكرى زعيم عظيم .

وهكذا حاولت أن أبدأ .

* * *

ويبقى بعد ذلك سؤال ..

لماذا فريد وليس مصطفى ؟

ولقد استوقفني هذا السؤال طويلاً ...

فهذه السلسلة « قادة العمل السياسي في مصر » تستهدف اختيار عدد محدد ومحدود من قيادات العمل الحزبي لتسلط عليهم بقعاً من الضوء على أمل ان نقترب ليس فقط من الفهم الافضل للزعيم ومواقفه وانما وهذا هو المهم من الادراك الاكثر صحة

لطبيعة النهج السياسي والموقف الحزبي والمساحة التي تحرك فيها الزعيم والحزب على ارضية العمل الوطني .

انها محاولة لاستخلاص خيوط معينة لعلها — اذا ما تجمعت معاً يوماً ما — تعطي صورة ذات زوايا جديدة للعمل السياسي والحزبي في مصر الحديثة .

ومن النسيج المعقد لتاريخ العمل الحزبي في مصر التقطت حتى الآن ثلاثة خيوط .. مصطفى النحاس ، سعد زغلول ، حسن البنا .. وهذا هو الخيط الرابع ، والبقعة الضوئية في هذه السلسلة تمتد لتحاول ان تشمل الزعيم — الموقف — الحزب — الوطن .

فليس بالامكان ان ننتزع الزعيم من الوعاء الذي مارس فيه زعامته والا كانت الرؤية قاصرة .. وذاتية .

ومن هنا كانت حيرتي .. إلى أين أوجه عملية البحث عن المساحة التي يغطيها من تاريخ مصر ذلك الحزب الفريد من نوعه « الحزب الوطني » والذي تميز دوماً بالتألق والضعف معاً ، ولاسباب عديدة اتجهت ببحثي نحو محمد فريد . صحيح ان لزعامة مصطفى كامل عبقها الخاص لكنه كان ولسوء حظ مصر شهاباً لمع سريعاً في أفق مصر فما ان تطلعت اليه الانظار حتى توارى . وأهم ما يميز سيره محمد فريد انه عاصر مصطفى كامل .. وزامله منه خطواته الاولى ، ثم اصبح خليفة له ، ثم قاد الركب الوطني من بعده في فترة من احلك فترات الحزن

المصري العميق .. ثم عاش حتى قيام ثورة ١٩١٩ .

ان الموقف الصارم والمأساة الدرامية للحزب الوطني ... وبجيل كامل من ابناء مصر تتجسد بصورة واضحة تماماً في شخص محمد فريد ..

وعلى أية حال فان الكتابة عن محمد فريد ليست سوى محاولة للاقتراب من دفء زعامة مصرية نادرة المثال هي زعامة مصطفى كامل .

* * *

والان .. صمتاً – يا عزيزي القارىء – وخشوعاً .

فلست اقبل منك ، ولست تقبل مني بأقل من الخشوع ونحن نقترب من محراب زعامة أبيــه ، شجاعة ، متفانية ، شارفت في تعلقها بالوطن والشعب مرتبة الوجد عند المتصوفة ..

خشوعاً عزيزي القارىء .. فسوف نتحدث عن محمد فريد ..

القاهرة أول مايو ١٩٧٨

- ١ -

الارستقراطي

... ولم يكن غريباً أن يتقدم الفتى الارستقراطي سليل الأسرة العريقة ليخوض معركة السياسة.. فقد تقدم غيره كثيرين من أبناء الارستقراطية ..

عبد الخالق ثروت باشا .. عدلي يكن باشا .. محمد محمود باشا وغيرهم كانوا زعماء من أصل ارستقراطي .. وكذلك كان فريد ايضاً .

لكن الغريب هو أن فريد وبرغم انه أكثر ارستقراطية من هؤلاء جميعاً الا انه تخطى حاجز الطبقة ، وانطلق ليتفانى بصدق واخلاص ليضحي من اجل قضية وطنه وشعبه ..

وشتان بين ارستقراطي يمتطي حركة الجموع الشعبية ليخدم مصالح طبقته ، وبين آخر يضحي بكل ماله وينفلت من اسار المصالح الطبقية الضيقة بل ويشن الحرب على طبقته ، ولا يستشعر مصلحة الا مصلحة الوطن ، ولا محبة الا محبة الوطن ، ولا مستقبلاً الا مستقبل الوطن ..

.. الجد الاول مثل كل الأسر الارستقراطية في مصر .. تركي أتى عقب الغزو العثماني .

.. عثمان افندي « كاتب العملة » وهو منصب من ارفع المناصب يتولاه صاحبه بموجب فرمان ، وظلت وظيفة كاتب العملة تنتقل بالوراثة حتى استقرت عند احمد افندي ابن ايوب افندي جد محمد فريد .

اما فريد باشا والد محمد فريد فقد كان في عام ١٨٦٣ ناظراً لقلم التحريرات بمصلحة السكة الحديدية ، ثم انعم عليه بالرتبة الثالثة ، ثم عين في ٢٥ يونيو ١٨٧٧ عضوا بمجلس الاحكام وفي السنة نفسها عين مديراً للشرقية ، ثم نقل مفتشاً لحسابات دوائر العائلة الخديوية .. ، ثم مديراً للقليوبية ، ثم عاد مديراً للشرقية ، .. وانعم عليه برتبة الباشوية ..

« انه بناء على اهليتكم ودرايتكم وقيامكم بتأدية الخدمات المهمة التي احيلت على عهدتكم فقد انعمنا عليكم برتبة الميرمان الرفيعة وعيناكم مديراً للشرقية »

وفي يوليو ١٨٨٦ صدر أمر عال بتعيينه ناظراً للدائرة السنية (١)

وفي فبراير ١٨٩٢ صدر الامر العالي التالي ..

« انعم الجناب الخديوي المعظم بصفة استثنائية بالنيشان

(١) مجموعة الأوامر العالية لعام ١٨٨٦ ص ٤٤٢ .

المجيدي من الدرجة الاولى على سعادة احمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية مكافأة له على ما حصل عليه في خلال سنة ١٨٩١ من النتائج التي لم يسبق لها نظير » (١)

ويورد محمد فريد الخبر في مذكراته الخطية باعتزاز ظاهر « وفي ١٧ منه (فبراير سنة ١٨٩٢) أنعم الخديوي بالنيشان المجيدي من الدرجة الاولى على سعادة احمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية (والدي) والمراقبين بها وهما انكليزي وفرنساوي (بطريقة إستثنائية مكافأة لهم على ما حصلوا عليه في خلال السنة الماضية من النتائج التي لم يسبق لها نظير) هذه هي الالفاظ التي وردت في الجريدة الرسمية » (٢)

ولقد ظلت الارستقراطية تلاحقه .. طفلاً وشاباً .. وعندما يتزوج تكتب « الوقائع المصرية » في انبهار ما لم تعتد كتابته الا عن افراح البيت المالك .

وتحت عنوان « الافراح عند سعادة فريد باشا » تقول : « من نحو اسبوعين اقيمت الافراح في دار صاحب السعادة أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية إحتفاءاً بتأهيل نجله الاول

---

(١) عبد الرحمن الرافعي — محمد فريد — الطبعة الثالثة (١٩٦٢) مكتبة النهضة المصرية . ص ١٧ .

(٢) مذكرات محمد فريد — القسم الأول — تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية . حققه وقدم له د. رؤوف عباس (١٩٧٥) عالم الكتب ، ص ١١٢ .

محمد بك فريد ووزعت تذاكر الدعوة على المدعوين لحضورهم في ليلتي الاحد والاثنين من هذا الاسبوع .. وكان منزل سعادة الباشا في شبرا مجتمعاً لوفود المهنئين ومنتدى سرور للحاضرين . ولما كانت ليلتا الدعوة توافد في الاولى العدد العديد من حضرات العلماء الاعلام وتجار العاصمة وكثير من اعيانها وجم غفير من ذوي الرتب والوجاهة من البلاد الريفية .. وفي الليلة الثانية توافد على المنزل كل أكابر العلماء الفضلاء واعاظم الامراء واوائل الوجوه والاعيان وفي مقدمة الجميع دولتلو رياض باشا رئيس مجلس النظار وحضرات النظار الكرام ، وبالجملة لا يحسب مبالغاً من يقول انه وفد في تلك الليلة جميع كبراء موظفي الحكومة السنية بين وطنيين واجنبيين ، ومشاهير الذوات والأمراء والاعيان . اما الليالي فكانت بضوءها نهاراً وبرونقها كمال كمال ، باهت بزينتها ، وفاقت بمسرتها امثالها من ليالي الافراح وقد كانت الموسيقى تستقبل الضيوف على اختلاف درجاتهم بتلحين الابتهاج .. والذي زاد سرور ذوي الفرح عموماً وسعادة فريد باشا خصوصاً ان صدرت الارادة السنية بتكليف بعض رجال المعية السنية العظام ان يبلغ سعادة فريد باشا تهاني الحضره الفخيمه . فكان لهذا النبأ الموقع الجميل في افئدة العموم . لا زال الجناب العالي مصدراً للجميل مسدياً المخلصين من رعاياه كريم خيره ورضاه آمين » (١)

---

(١) الوقائع المصرية – ١٨٨٨/٧/٢ .

.. ولعل في هذا الوصف ما يغني عن أي حديث آخر عن النشأة الارستقراطية لفريد ولعل هذه الارستقراطية قد ظلت تلاحقه دوماً .. فحتى عندما اندمج في خضم النضال الوطني ، ونادى بالدفاع عن حقوق العمال والفلاحين ، ووهب حياته لخدمة الشعب بعد ذلك كله نجد فريداً وهو لا يزال ارستقراطياً في بعض مواقفه ونزعاته ..

وعندما يموت خصمه اللدود الشيخ علي يوسف يكتب في مذكراته « توفي الشيخ علي يوسف بداء القلب .. فانهد بموته ركن النفاق والذبذبة ... وهذا الرجل نشأ فقيراً حقيراً في بلصفورة بصعيد مصر . تعلم قليلاً بالازهر ثم دخل في خدمة رجل أديب من رجال الحكومة اسمه علي بك رحمي بصفة خادم . ثم اخذ يقول الشعر للاستجداء »

ويواصل فريد حديثه المليء بالكبرياء والارستقراطية فيقول « ولما توفي الشيخ السادات والد صفية زوجته عينه الخديو شيخ سجاده السادة الوفائية ولقبه بالسيد في امر تعيينه رغماً من حكم المحكمة الشرعية بانه وضيع وليس من الاشراف » (١)

إلى هذا الحد كان الزعيم مترفعاً متعالياً .. ارستقراطياً . وكان كذلك ايضاً حتى في السنوات الاخيرة من حياته .

---

(١) محمد صبيح . مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية — المجلد الثاني — الطبعة الأولى (١٩٦٤) . دار التعاون . ص ٢٧١ (ويتضمن هذا الكتاب بعض نصوص القسم الثاني من مذكرات محمد فريد) .

وحتى الحزب الذي اسهم مصطفى وفريد في تأسيسه والذي خاض فريد على رأسه اروع كفاحه لم يكن بعيداً هو أيضاً – في قيادته – عن الارستقراطية .

ففي ٢٠ يناير ١٩١١ عندما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب لتنتخب اللجنة الادارية .. انتخبت لجنة من واحد وثلاثين عضواً منهم « باشا » واحد وستة وعشرون « بك » (١)

.. ومحمد فريد لم يلبث بعد ان تخرج من مدرسة الادارة (الحقوق) ان عين بوظيفة بقلم قضايا الدائرة السنية . وبعدها بعام واحد رقي وكيلاً لهذا القلم ، ثم أصبح رئيساً للقلم ؛ وبعدها بعامين انعم عليه بالرتبة الثانية (البكوية) ، وفي اليوم التالي نقل إلى النيابة العمومية . كل ذلك وهو لم يزل في الثالثة والعشرين من عمره ..

الفتى الارستقراطي المترف تتفتح امامه الابواب .. شأنه شأن كل أبناء المترفين .

ويسجل فريد في مذكراته هذا الحديث قائلاً « في يوم ٣ أغسطس ١٨٩١ أنعم جناب الخديو على كاتب هذه الاسطر بالرتبة الثانية مع لقب بك . وفي يوم ٤ منه نقلت من الدائرة السنية حيث كنت رئيساً لقلم قضاياها .. إلى قلم النائب العمومي .. واعطى لي متوسط الدرجة وانتدبت بنيابة محكمة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق . ص ٢٧٢ .

مصر الابتدائية » [1]

ولقد يلاحظ البعض ان هذه المنحة الخديوية لمحمد فريد قد تواكبت مع صدور كتابـــه « البهجة التوفيقية وتاريخ مؤسس العائلة المحمدية » والذي صدر في نفس العام (١٨٩١) .

وتعلق المؤيد على الكتاب ومؤلفه فتقول « انه الكاتب البليغ ، والباحث المدقق ، الشاب الأبي ، الاديب الاريب ، محمد بك فريد وكيل قلم قضايا الدائرة السنية .. صاحب المباحث المفيدة والمقالات الرنانة . . وهو الشاب الذي تحلى منذ نعومة اظفاره عن علائق نشأة الفتوه ، وشغف بالفضائل والآداب فأدرك منها النصيب الاوفر ، والقدح المعلى ، وتربى عـــلى تهذيب الافكار وحرية الضمير .. » [2]

بل ان الخديو يحاول ان يواصل اهتمامه بابن ناظر دائرته السنية .. وربما يحاول ان يتجاوز الحد في هذا الاهتمام إلى درجة تجعل كرومر يعترض ، ليس رفضاً لمبدأ المحاباة ، وانما خوفاً من استجماع الخديوي لقلوب عدد من الشباب المصريين الذين بدت بوادر الوعي والحماس تطل مـــن كتاباتهم وتصرفاتهم . ومرة اخرى نعود لمذكرات فريد « أمر جناب الخديو بتعيين كاتب هذه الاسطر بوظيفة وكيل مستشار لقلم قضايا الاوقاف ، ولما علم الانكليز بذلك اعترضوا على هذا

---

(١) مذكرات محمد فريد – المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) المؤيد ١٨٩١/٣/٢٨ .

التعيين . وارسل كرومر إلى مصطفى باشا فهمي يحتج على ذلك .. فأوقف التعيين للآن ولم ادري ماذا تم بعد ذلك » [1]!

وتكتمل مراسم الارستقراطية بانضمام محمد فريد إلى الحركة الماسونية التي كانت في ذلك الحين ملتقى كبار القوم ..

ويقول فريد في مذكراته « في مساء اليوم (١٢ من ديسمبر ١٨٩٢) تم تكريس كاتب هذه الاسطر أخاً ماسونياً في محفل الثبات الموقر التابع للمحفل الاكبر الوطني واعطيت لي اسرار درجة مبتدىء »

وكعادته .. يصعد سريعاً .. فبعد اشهر قليلة يسجل فـي مذكراته « وفي مساء هذا اليوم (٥ مارث ١٨٩٣) ترقى كاتب هذه المذكرات إلى درجة شغال في الماسونية الشريفة واعطيت له اسرارها » [2]

والارستقراطية ليست كافية وحدها كي يواصل الانسان تقدمه في بلد محتل ، فالارستقراطية في مصر المحتلة كانت تتمتع بالاستعلاء الشامخ على جماهير الشعب وتعاني — وبنفس القدر — من الاذلال المهين بواسطة المحتلين .

لكن فريد يشذ عن إطار الطبقة المسترخية في قبضة الاحتلال ، ولدى اول دلائل التحدي .. يصطدم بالمحتلين

---

(١) مذكرات محمد فريد — المرجع السابق ص ٢٩٢ .
(٢) المرجع السابق . ص ١٣٥ .

ويواجه بالخيار الصعب .. فيختار طريقة الحديد وهو طريق التصادم المستمر والمتواصل مع الاحتلال ومع كل اذنـــاب الاحتلال ..

وكان التحدي مجرد جنين ، لكن عيني كرومر الشرسة التقطت المغزى ورفضته وقررت التصدي له بالشراسة المعروفة عن الاحتلال وعن كرومر بالذات .

كانت المؤيد قد نشرت أخباراً قيل انها سرية عن حملة السودان وقدم الشيخ علي يوسف رئيس التحرير وتوفيق افندي كيرلس عامل التلغراف الذي نقل الخبر للمؤيد للمحاكمة ..

واتخذت القضية طابع التحدي بين الاحتلال والعناصر والقوى الوطنية . وعندما قضت المحكمة ببراءة الشيخ علي يوسف وحملة الجمهور على الاعناق معرباً عن مشاعر وطنية دافقة . قرر كرومر ان يرهب هذا الجنين وان يرفع في وجهه سوط الاحتلال .

ويروي فريد بقية القصة في مذكراته :

« وحضر المرافعة كثير من وكلاء النيابة والقضاة وبالجملة كاتب هذه الاحرف فزاد هذا التجمهر الانكليز حنقاً وطلبوا من النائب العمومي يوم الاربع الجاري نقلي إلى احدى المحاكم القبلية فصدع بالامر وطلب من الحقانية نقلي إلى نيابة بني سويف وجاء تصديق الوزارة في صباح الخميس ١١ منه

ولما علمت به صممت على الاستقالة من وظيفتي وعدم قبول هذا النقل المقصود منه اهانتي والتأثير على عواطفي واحساساتي الوطنية ولما توجهت السبت إلى نيابة الاستئناف بلغت ما تقرر رسمياً فقدمت استعفائي للنائب العمومي ، وجنابه استحسن ابقائه بطرفه إلى يوم الاحد ربما أعدل عن فكري مع اني اخبرته بتصميمي على ذلك قطعياً . وفي يوم الاحد توجهت اليه واخبرته باصراري فكتب على ورقة الاستقالة للنظارة وهي جاوبته بالقبول في اليوم بعينه . وبذلك تخلصت من خدمة الحكومة التي لا تقبل الا كل خاضع لاوامر الانكليز ميت الاحساس غير شريف العواطف » (١)

كانت الاستقالة هي الخطوة الاولى التي اعلن بها الفتى الارستقراطي رفضه لتبعات الارستقراطية في وطن محتل ، وكانت خطوة شجاعة ورائدة ، وكانت مجرد بداية لرحلة بالغة المشقة على طريق مليء بالشوك والعذاب .

* * *

واشتغل فريد بالمحاماة في عام ١٨٩٧ . وتنشر المؤيد

« قد اتخذ العالم الفاضل القانوني محمد بك فريد المحامي امام محكمة الاستئناف والمحاكم الاهلية محلاً للاشتغال بالمحاماة في ملك المرحوم ثاقب باشا امام الاجزاخانة الطليانية بشارع

---

(١) مذكرات محمد فريد – المرجع السابق ص ٢٧٣ .

محمد علي وما نعهده في كفاءة حضرة الفاضل وسعة علمه وقوة حجته سيكون خير كفيل لنجاحه في مهنته الجديدة . فيخدم بذلك وطنه ويخدم الحقوق الشخصية والعمومية اجل خدمة . ويكون لحضرات الفضلاء من ابناء كبراء مصر منه خير قدوة واشرف مثال » (١)

« وكان فريد أول شاب يشتغل بهذه المهنة من الاثرياء . وقد اتخذ فيها سلوك ذوي الضمائر الحرة فكان لا يقبل قضية الا اذا أيقن ان الحق في جانب صاحبها . « وبلغ من حرصه على هذا المبدأ أن احدى الأميرات من اسرة محمد علي عرضت عليه ان يترافع عنها في قضية اقامتها بموجب سندات ... ولان محمد فريد كان يعلم ان سبب هذه المستندات غير مشروع فقد رفض القضية وأبى ان يوكل فيها » (٢)

ومع ذلك فقد كان الباشا والد فريد يبكي من فرط الاهانة التي لحقت بالاسرة العريقة لان احد ابنائها « افتتح دكـــان أفوكاتو » (٣)

وأصدر فريد وهو محام عدة كتب بعضها لاسباب سياسية مثل كتاب « تاريخ الدولة العلية العثمانية » (١٨٩٤) وبعضها

---

(١) المؤيد ١٨٩٧/٧/١٧ .
(٢) محمد علي غريب – محمد فريد ، الفدائي الأول – (١٩٥٨) – المكتبـــة العلمية . ص ١٦ .
(٣) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٢١١ .

للتنوير العام مثل « تاريخ الرومان » (١٩٠٢) .

وفي نوفمبر ١٨٩٨ أنشأ مجلة الموسوعات بالاشتراك مع الاستاذ احمد حافظ عوض ومحمود بك أبو النصر . وكانت مجلة علمية نصف شهرية .

وقد كرس فريد معظم مقالاته في الموسوعات للحديث المباشر وغير المباشر عن الاستعمار وأساليبه واهدافه .. بل لعله كان يصدر الموسوعات خصيصاً لهذا الهدف .

ولنتابع قائمة مقالاته . . « انجلترا وفرنسا بافريقيا » (١) و « الانجليز في غرب افريقيا » (٢) و « انجلترا والترنسفال » (٣) و « روسيا في آسيا » (٤) و « الشركة الانجليزية الافريقية » (٥) .. وهكذا .

وفي ١٩٠١ يموت والده وتنعيه المؤيد قائلة :

« توفي إلى رحمة الله اليوم المغفور له أحمد فريد باشا ناظر الدائرة السنية سابقاً ووالد حضرتي الفاضلين محمد بك فريد المحامي الشهير ، وابراهيم بك فريد القاضي بمحكمة مصر الابتدائية الاهلية .. وكان رحمه الله من كبار اركان الحكومة

---

(١) الموسوعات — ١٨٩٩/٤/٢٦ .
(٢) الموسوعات ١٨٩٩/٨/٨ .
(٣) الموسوعات ١٨٩٩/٩/٢١
(٤) الموسوعات ١٩٠٠/١/١٦ .
(٥) الموسوعات ١٩٠٠/٣/٣٠ .

وقد خدمها بالصدق والهمة الشماء »[1] .

وقد ترك الباشا لابنه ثروة ضخمة « نحو الف ومائتي فدان منها ٩٥٣ فداناً موقوفة وقد خص فريد من هذا الوقف ١٥٠ فداناً وخصه من الاملاك ١٥٠ فداناً أخرى . وترك لـه والده قصراً بشارع شبرا مساحة ارضه وحدها خمسة افدنة .[2]

وفي السنوات القليلة التي اعقبت وفاة والده كان فريد قادراً على ان ينمي هذه الثروة وان يحسن ادراتها وان يمارس مهمة المحاماة بنجاح كبير فأضاف إلى ما ورثه من ابيه عمارتين كبيرتين في شارع حمدي بالظاهر .

* * *

ولسنا نستطيع ان نتحدث عن الشاب الانيق الارستقراطي النزعة ، المهيب الطلعة دون ان نتخيل علاقته بشقيق نضاله .. مصطفى كامل . ودون حديث طويل يكفينا ان نقتبس بعضاً من الكلمات المليئة بالحرارة والدفء والدافقة بالمودة والحب والتي كانت تغمر كل رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد وهما في مطلع شبابهما ينسجان من صداقتهما الوطيدة أملاً لمصر كلها ..

---

(١) المؤيد ١٩٠١/٣/١٠ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق . ص ٥٤٠ .

* في ٣ نوفبر ١٨٩٦ كتب مصطفى من استانبول إلى فريد قائلاً « أتلذذ حقـاً بمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز » .

* وفي ١٩ يوليو ١٨٩٨ كتب اليه مصطفى من باريس يقول « دمت لي أخاً وفياً صادقاً ودمت معي خادمين صادقين للوطن المحبوب » .

* ومن نابولي يكتب اليه « اني لو أردت ان اشكر لك صدق إخائك وتفانيك في خدمة المبـدأ الذي وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلاً ، وحسبي ان أقول انك خير سلوى لي في هذه الحياة التي كثرت متاعبي وهمومي بها فكنت الاخ الممتاز والعون في الشدائد » .

* ورسالة اخرى من مصطفى إلى فريد مؤرخة في ١٩ أغسطس ١٨٩٨ يقول له فيها « غاية رجائي من الله — ان لم يسمع نداءنا ويخلص اوطاننا — ان يحفظ لي ودك الصادق وحبك الطاهر . تقبل الف الف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل.

* ورسالة اخرى تقول « ما بيننا من الود والاخاء يجعل مالك مالي ، ومالي مالك ، وحياتي حياتك ، وحياتك حياتي ، هذا ما اعتقده وما تعتقده انت فروحي روحك بالود والاخلاص في كل لحظة وكل آن . ودمت لي أخاً

وفياً صادقاً ودمت معي خادمين صديقين للوطن المحبوب[1] .

ولقد كانت صداقة فريد ومصطفى بداية المرحلة الطويلة الشاقة التي خاضها الزعيمان معاً على رأس الحركة الوطنية ، يوقظان مصر ، ويقاومان الاحتلال ، ويتحديان روح اليأس والهزيمة .. ويرحل مصطفى سريعاً .. ويبقى فريد شامخاً دوماً ، رافضاً اي مساومة ولو يسيرة ، مصمماً على ان يضرب المثل والقدوة في كل موقف ..

ويسجن .. ويطارد .. ويهاجر .. ويفقد كل ثروته لكنه يبقى شامخاً ، ينفض الكثيرين من حوله ويصمد هو ، يمرض فلا يجد الدواء ويرفض اية مساومة .

.. وعندما تلتف حوله البقية الباقية من رجاله وهو يحتضر يبتسم في شجاعة قائلاً « اني أنا وأولادي وكل عزيز لدي فداء لمصر ، لقد قضيت بعيداً عن مصر سبع سنوات فان مت فضعوني في صندوق واحفظوني في مكان امين حتى تتاح الفرصة لنقله إلى وطني العزيز الذي افارقه وكنت اود ان أراه »[2]

* * *

---

(١) فتحي رضوان – مصطفى كامل – سلسلة اقرأ العدد ٣٩٠ – ديسمبر ١٩٧٤ ص ١٣١ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ٤٤٤ .

لكننا لم نزل بالاضافة إلى كل ما سبق بحاجة إلى ان نقترب اكثر من فريد وان نتعرف عليه وعلى افكاره واسلوبه في الحياة وصفاته الشخصية ..

يصفه فتحي رضوان فيقول « ففريد عصبي المزاج ، عنيف اذا غضب ، وهو لا يعرف انصاف الامور ، ولا اشباه الحلول ولا يتوسط في الحكم على الاشياء والاشخاص ، فالناس عنده والاحداث اما بيضاء ناصعة واما سوداء حالكة السواد » [1]

بهذا وصفه احد حوارييه .. فماذا قال فريد نفسه واية صفات حث تلاميذه واتباعه على التمسك بها ..

في مقدمته الطويلة لكتاب علي فهمي كامل بك « سيرة مصطفى كامل » قدم فريد وصفاً تفصيلياً لصورة الزعيم كما يجب ان تكون .. ولعله في هذا الوصف كان يسرد لنفسه — قبل ان يسرد لغيره — ما يتعين عليها ان تلتزم به كي تصبح الزعامة قادرة على ان تحقق أهدافها .. واهداف الوطن .

ويمضي فريد في مقدمته التعليمية ليحدد الفضائل التي يتعين توافرها في الزعيم فيقول « وهذه الفضائل كثيرة نذكر منها قوة الارادة والتعويل على النفس مع الصدق والشجاعة والامانة والسعي في الخير والنشاط النادر وسرعة الخاطر مع العلم الصحيح

---

(١) المصور — ١٩٦٩/١١/١٤ — مقال لفتحي رضوان بعنوان « محمد فريد صورة قلمية » .

وقوة الخطابة مع الصراحة التامة والافصاح بلغة صحيحة سهلة مؤثرة »[1]

انها تلك الصفات التي تحلى بهـــا وتمسك بها فريد وظـــل متمسكاً بها برغم كل شيء وكأنه يدرك ان الانتقاص من هذه الصفات هو انتقاص من الزعامة ذاتها .. ثم هو يقول « كل هذه الفضائل اذا تحلى بها رجل لا يدخل اليأس على فؤاده ، بل يعتصم بالصبر والثبات غير ملتفت إلى ما يقف في طريقه من تهديد العدو أو نفاق المنافق او خيانة الخائن »[2] .. وهكذا كان فريد أيضاً .

ثم يقول فريد « وليست عظمة الرجال مقصورة على فتح المدائن وتحرير الاوطان بالسيف والنار ، فان هناك رجلاً اعظم من كل الرجال ، ذلك هو الذي يفتح القلوب ويرسم عليها ما شاء من ضروب الوطنية ، ذلك هو الرجل العظيم بالمعنى الصحيح . فالرجل الذي يستطيع بقلمه ولسانه وما بينهما من همة لا تعرف الملل وعزيمة أمضى من السيف ان يكون قلوباً حساسة تدرك ماهية حب البلاد وتضحي بكل نفيس في نصرتها لهو في مرتبة أجل وأسمى من مراتب القائمين بالسيف والسنان .

لان من يعتمد على النار والحديد في تحرير بلاده انما اعتمد

(١) علي فهمي كامل بك . سيرة مصطفى كامل – الجزء الأول – الطبعة الثانية (١٩٢٦) مطبعة الدفاع الوطني ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

على القوة الساحقة بصواعقها المبيدة ، على ما تستدعي من اراقة دماء بريئة ربما ذهبت دون الوصول إلى الاستقلال المحبوب والحرية المنشودة والحق المغصوب » (١)

* * *

وتمضي الرحلة بالزعيم طويلة ، مريرة ، شاقة . لكنـــه يحتمل . ويبقى كما كان دوماً . وكما اراد لنفسه شامخاً لا يهن ولا يعرف الضعف او التردد ..

وطوال هذه الرحلة المجيدة كان فريد يعرف مكانـــه ومكانته على رأس حركة شعبه ، مدركاً ما يلقيه عبء الزعامة على كاهله من تبعات . لقـــد ساوم الكثيرون وناوروا مع الاحتلال وعملاء الاحتلال وصعدوا بذلك قليلاً او كثيراً اما هو فقد ظل رافضاً اية مساومة . ظـــل مدرسة للإباء الوطني ولشموخ الزعامة عندما تترفع عن الصغائر ..

شيء واحد كان يضعف امامه .. هو الوطن ..

« هذه الارض المقدسة التي لو حللت اجزاءها لكان لك في كل ذرة منها ميراث كبير هو عظام أبائك واجدادك الأولين . هذه الارض التي لو ضحكت لاضحكت الوطني ، ولو بكت لابكته فخيرها خيره وشرها شره فهي امه وأبوه وبنوه ، بل انه قطعة منها قامت لتدفع عنها الضرر الحتمي اذا ما أدت لها

---

(١) المرجع السابق ص ٩ .

واجباً وأحسنت عملاً عادت إلى مكانها منها لتلقى من ربها الجزاء الاوفى »[1]

سبع سنوات مضاها فريد بعيداً عن أرض أحبها وذاب وجداً في هواها ، سبع سنوات يعمل ويضحي وينفق ويفلس ويمرض ويتعذب من اجل ايقاظ مصر ..

وتستيقظ مصر .. فجأة تنتفض وتثور وتلتهب بالغضب ، ويبقى الزعيم منفياً ، ليس فقط عن الارض ، ولكن المأساة ان ينفى عن الثورة ذاتها .. ينكره الزعماء الجدد او يخشونـــه ، يخشون زعامته المهيبة ، ورفضه لأية مساومـــة . وتتراكم الاحداث ويبقى المنفي بعيداً لكنه يظل متشبثاً بمحبته لوطنه وبايمانه بشعبه .

وتكون رسالته إلى شعب مصر التي وجهها في ذكرى ١٤ سبتمبر ١٩١٩ أي قبل وفاته بشهرين اشبه « بالوصيـــة » أو « رسالة الوداع من زعيم لشعبه »

فماذا قال فريد في وصيته ؟

« اخواني المصريين الاعزاء . ان الصوت الذي يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف من الارتفاع في صحف مصر من نحو سبع سنوات . ولكن منعه من الارتفاع على ضفاف وادي النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية .. ان

(١) علي فهمي كامل بك — المرجع السابق ص ١٣ .

صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً ، ولم يتأخر بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين بل كان يزداد قوة ونشاطاً كلما تراكمت امامه الموانع وتكدست العقبات . ان هذا الصوت يناجيكم من وراء البحار ليهنىء الامة المصرية على تضامنهـا وتضافرها والمطالبة بحق امنا المظلومة مصر لا فرق في ذلك بين ابنائها وبناتها مسلمين واقباطاً .. »

وفريد يدرك او لعله يذكر الاخرين بأنه ليس غريباً عن الثورة بل هي ثمرة من ثمار كفاحه .. وكفـاح حزبه فيقول « ونشكر الله على هذه النتيجة الحسنة التي دلت على ان ما ألقاه مؤسسو الحركة الوطنية من البذور في تلك الأرض الخصبة قد نبت وترعرع ساقه ، ثم ازهر وظهرت ثماره الشهية التي قد قرب زمن جنيها » (١)

وعندما يتوقف القلب الذي احب بلاده كل الحب ... يلتف حوله عدد قليل من الرجال ويقف الشيخ عبـد العزيز جاويش ليلقي كلمة قبل ان تتحرك الجنازة من بضعة افراد ..

« ايها السادة : امام جثة هامدة وميت لا يعي نحن واقفون ؟ كلا ثم كلا ! نحن وقوف امام صفحات من تاريخ الجهاد الاكبر في سبيل الحرية البشرية ، في سبيل الذود عن الحقوق

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٣٨٩ وأيضاً : المصور ١٩٦٩/١١/١٤ – صبري أبو المجد ، مقال الحركة الوطنية المصرية بقيادة محمد فريد .

الطبيعية للشعوب الانسانية ، في سبيل مصارعة الامم القويـــة ذوات المطامع الاشعبية .

نحن وقوف امام هذا الراحل الكبير الذي كانت حياته مثالاً كاملاً للمتشبهين وقدوة صالحة للعاملين فيهـــا هي تلك صفحاتها الناصعة ترينا كيف جمع فقيدنا العزيز إلى صلابة العزم جهاداً لا يوهنه الملل ، ولا يرهبه الكلال . كما ضم إلى الصراحة البالغة في كتابته وكلامه اقداماً يستهزىء بالغوائـــل ويسخر من كارثات النوازل » (١)

.. ويصل نعيه إلى مصر وهي في غمار ثورتها ..

وترثيه الاهرام قائلة « مات فريد وكفى باسمه وصفاً لحياته غريباً عن وطنه حباً بذلك الوطن فأحياه موته ــ وهو غريب مجاهد ــ في قلب كل مصري وكل محب لمصر وخلده وجهاده ، لانقاذ هذا الوطن في التاريخ إلى جانب كل رجل عظيم ووطني كبير .. استمات في حب الاستقلال فمات وحيـــاة امته في عنفوان الشباب ، وخفت صوته واصوات امته اليوم هتافه ترتفع إلى الجوزاء » (٢)

اما الاجيبسيان ميل الجريدة ذات الولاء للاحتلال فقد كتبت تقول « ولا حاجة إلى القول بان فريد كان مخلصاً في مبدئـــه

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق . ص ٤٤٥ .
(٢) الأهرام ١٩١٩/١١/١٩ .

الذي لم يتوان عن العمل على تحقيقه في العشر سنوات الاخيرة . وكان فوق ذلك اول زعيم وطني بـــذل ماله في سبيل مبدأه المحبوب فكان بذلك مثالاً نادراً في الشرق وفي مصر عـــلى الخصوص لمن يفدي مستقبل وطنه بكل ما يملك » .

وتمضي الاجيبسيان ميل قائلة « ولسنا نحن من رأى الزعيم الوطني الراحل في مذهبه السياسي ولكننا لا نتمالك ان نبدي اعجابنا بخلقه وصدق شعوره بالوطنيـــة ، ولا سيما انه حين بذل كل ما يملك لم يكن ينتظر اي مكافأة من ابناء وطنه » (١)

.. لكن الكلمات لا تكفي . كل المعاني تعجز . ولا يجد حافظ ابراهيم سبيلاً لرثائه الا بيتاً من الشعر يلخص كل المأساة

ها هنا قبر شهيد في هوى
أمـــة أيقظها ثم رقـــد

---

(١) اجيبسيان ميل ١٩١٩/١١/١٩ .

- ٢ -

الحرب

كانت مصر في حالة تشبه الاحتضار .. هكـذا تـركتها هزيمة الثورة العرابية .

ويتطلع الجيل الجديد في ثمانينات القرن التاسع عشر إلى مصر وهي راقدة بلا حراك مستسلمة بلا قدرة ..

لكن المصريين كعادتهم وبرغم حديثهم الكثير عـــن اليأس ، يستطيعون بقدرة غريبة وبصبر نادر ان ينسجوا مـــن خيوط اليأس أملاً جديداً .

وكان الاحتلال لا يريد لمصر ان تستيقظ . سلطاته وبوليسه وخونته يملأون كـل مكان ، يهيمنون عـلى كـل شيء ، يرصدون كل حركة

وعندما يلتقطون آي خيط فيه شبه تحرك او مقاومـــة يضربون بشدة ثم يمدون يداً بقفاز من حرير تحنو على اصحاب المحاولة ثم تستوعبهم .

هكذا فعلوا مع « جماعة الانتقام » التي تكونت في اعقاب

الهزيمة » ضربوها بشدة [1] ثم اذا بأحد اقطابها « سعد زغلول » يلمح سريعاً في صالون الاميرة نازلي الذي اعده كرومر خصيصاً كمصيدة للمعتدلين من المصريين . يتعرف فيه على القرائن الجديدة وينتقي من يشاء ليتعاون معه .

ومحاولة اخرى تكتشف وترسل دار المندوب السامي برقية سرية عاجلة إلى وزارة الخارجية البريطانية لتتهم الشيخ محمد عبده وآخرين بتدبير مؤامرة هدفها الاغتيالات ثم لا تلبث هذه البرقيـــة ان تلغى ، ثم لا يلبث الشيخ محمد عبده ان يظهر هو الآخر في صالون الاميرة نازلي .

ولسنا نود ان نلقي ظلالاً من الشك على رواد صالون نازلي من المصريين . فهم وطنيون — بهذا القدر أو ذاك من الوطنية — ولعل بعضهم كان يتقدم إلى المصيدة طائعاً مختاراً ، ولعل البعض كان يقتحمها مؤملاً ان يجد فيها فرجه أمل لمصر .... فهذا هو دوماً منطق « الاعتدال » في الوطنية .

ولم يكن صالون نازلي هو الصالون الوحيد .

كان هناك صالون لطيف باشا سليم الحجازي .

وتعود بنا الذاكرة سريعاً إلى البكباشي لطيف سليم الحجازي على زمن الخديوي اسماعيل .

---

(١) زكي فهمي صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر . الجزء الأول — مطبعة الاعتماد (١٩٢٦) . ص ١٣٥ .

وكان هذا الضابط أحد « همزات الوصل » بين الخديوي وحلقات الضباط الثائرين . وعن طريقة استطاع الخديوي أن يلقن وزيره المتمرد عليه والضالع مع الانجليز نوبار باشا درساً قاسياً وعلقه ساخنه ، عندما حشد البكباشي مظاهرة من الضباط الغاضبين بسبب وقف صرف رواتبهم لمدة ١٨ شهراً وضربوا الوزير الاول [١] فكانت نهايته .

لكن لطيف سليم شأنه شأن كل « همزات الوصل » لا يشارك في الثورة ، ويبقى ، ويصبح باشا ، ويشيد قصراً ، ثم يفتح صالون قصره امام بقايا الثورة المهزومة مثل عبد الله النديم العائد حديثاً من المنفى ، ومعهم جيل جديد من الشبان اقتحموا صالون الباشا المخضرم عن طريق ابنه الطالب « محمد فؤاد سليم » .

وسوف نرى في فصل قادم علاقة هذا الصالون بالخديوي الذي كان هو أيضاً غاضباً من النفوذ المهيمن للاحتلال ولمعتمده كرومر ، راغباً في ان يستجمع عدداً من العناصر الوطنية يتقوى بها في مجابهة كرومر .

وربما كان « الباشا » يواصل نفس الدور الذي لعبه « البكباشي » دور « همزة الوصل » بين القصر والعناصر الوطنية.

---

(١) د . رفعت السعيد ، الأساس الاجتماعي للثورة العرابية - الطبعة الثانية . مكتبة مدبولي - القاهرة (١٩٧٧) ص ١٤٧ .

المهم ان هذه المجموعة من الشبان التقت مع النديم واستمعت اليه . وتعلمت منه السياسة والخطابة والحماس الدافق والجرأة المتحدية .

وبارشاده يصدر مصطفى كامل مجلة « المدرسة » . وأهم من هذا يدخل مصطفى كامل ميدان النضال السياسي والوطني ضد الاحتلال .

ولا بد لنا أن نشير إلى أن الخطوات الاولى لمصطفى لم تكن بعيدة عن الخديوي ولا عن تمويله . ولسنا نجد في ذلك عيباً . فالخديوي كان في ذلك الحين ضد كرومر ربما ليس بنفس الدرجة التي يتطلبها « الوطني المخلص » ، لكن هذا هو المتاح الوحيد في ظل حالة الاحتضار التي كانت تعيشها مصر .

وتكونت مجموعة سرية يرأسها الخديوي وتضم قطبين ساسيين مصطفى كامل واحمـــد لطفي السيد . . وكانت هذه المجموعة تتخذ لنفسها اسماء سرية الخديوي (الشيخ) ومصطفى (ابو الفدا) ولطفي (ابو مسلم) [١]

وسوف نرى فيما بعد كيف ان هذه المجموعة قد انقسمت مصطفى سار في طريق العداء المستمر للاحتلال وأسس الحزب الوطني . واحمد لطفي سار في طريق الاعتدال والتهادن واسس حزب « الامة » وكان انسلاخ لطفي السيد عن الجماعة يأساً من

---

(١) د . حسين النجار – لطفي السيد ص ١٠٣ .

امكانية التصادم مع الاحتلال وخاصة بعد تراجع فرنسا امام الانجليز في حادثة فاشوده .

ولعل مصطفى كامل كان على حق عندما كتب في عام ١٩٠٧ يقول « ان الحزب الوطني الذي جعل اول مراميه واسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها موجود فيها فعلاً من ثلاثة عشر عاماً مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامي وبلائحة ولجنة ادارة قد ظهر باعمال . فقد اتفق اعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة ، وقاوم الاحتلال في اوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين وارتبط بروابط اكيدة مع ساسة اوروبا . ولما حدثت حادثة فاشودة اضعفت همم بعض الرجال من الحزب ، كما انفصل عنه بعض افراد لتمكن اليأس من قلوبهم .. واني من ساعة وصولي من اوربا إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وابطاله الكرام يطالبني بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم . » (١)

ان مراجعة وثائق هذه المرحلة ومنها مراسلات مصطفى كامل والمذكرات الخطية لفريد توحي بأن هذه الجماعة السرية التي التقت تحت راية الخديوي ثم انقسمت بعد حادثة فاشورة كانت تعتمد في جناحها الوطني المتطرف على عدد محدود جداً من الاشخاص .. ربما اربعة او اكثر قليلاً يتلقون عوناً مالياً

---

(١) اللواء — ١٠/١٠/١٩٠٧ .

من الخديوي لتمكين مصطفى كامل من السفر لاوروبا للدعوة ضد الانجليز واصدار بعض المجلات والنشرات المناوئة للاحتلال ..

ونستجمع هذه الاسماء من وثائق متناثرة ..

يقول محمد فريد في رثائه لمحمود لبيب محرم « انه (فريد) قد وطد صداقته بمصطفى كامل حين التقى به في باريس عام ١٨٩٥ قبل ان يلقى مصطفى خطبته السياسية بمدينة تولوز (٤ يوليو ١٨٩٥) . »

ثم يقول انه « تعاهد معه ومع محمود لبيب محرم في عام ١٨٩٦ على خدمة الوطن حتى الممات » (١) .

ويقول « ان اول عمل شرعت فيه المجموعة (مصطفى – فريد – لبيب محرم) بعد ان تعاهدت على خدمة الوطن هو تأسيس مجلة اسبوعية باللغتين الفرنسية والالمانية وكان يديرها شاب الماني هو هانس رزنر وتولى تحرير الجزء الاكبر منها محمود لبيب بدون توقيع . واستمرت الجريدة في الظهور حتى مات رزنر فترجم ثلاثتهم الكتاب الذي كان قد ألفه رزنر بالفرنسية عن المسألة المصرية » (٢)

---

(١) مذكرات محمد فريد – المرجع السابق – مقدمة د. رؤوف عباس المذكرات . ص ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

.. لدينا الآن ثلاثة اسماء اما الاسم الرابع فنلتقطه من وثيقة اخرى ..

انها رسالة من مصطفى كامل مؤرخه في ١٦ يونيو ١٨٩٥ ومرسله إلى الشخص الرابع في هذه المجموعة « محمد فـؤاد سليم » .

« حمداً لله على إنبعاث روح جديدة في نفوس ابناء مصر ولكني مع ذلك عالم بأني لا استطيع الاعتماد على أحد من ابناء جنسي ، واني اذا تصورت يوماً بأي صورة كانت لا أجد من أمتي عضداً ونصيراً الا ان كان منك يا أعز أبناء النيل عندي ، هذا ما يحزنني كثيراً فإني مع إرتياحي للمهة التي عرضت نفسي للقيام بها والغرض الشريف السامي الـذي اعمل له أرى ان غيري من الذين احب التشبه بهم كفرانكلين وغيره ، كـان يعمل ووراءه أمة تعزز مطالبه وتدافع عنه بعكس ما انا فيه فالذين ينصفونني ويوافقون على أعمالي انما يقولون بذلك في مجالسهم الخاصة وربما خافوا المجاهرة في المجالس العامة . . والذين يعترضون علي ويطعنون في يقولون ذلك جهاراً ولا يخافون احداً » (١)

والان لنراجع التواريخ بدقة ..

رسالة مصطفى إلى محمد فؤاد سليم مؤرخه في ١٦ يونيو

(١) فتحي رضوان – المرجع السابق . ص ١٢٢ .

١٨٩٥. وفيها يشكو مصطفى من أنه لا يجد «عضداً ونصيراً الا ان كان منك يا أعز ابناء النيل عندي »

وفي ٤ يوليو ١٨٩٥ يلتقي مصطفى بفريد فيصبحون ثلاثة . وفي ١٨٩٦ ، يتعاهدون مع محمود لبيب محرم فيصبحون أربعة ..

هكذا كانت الرحلة في بدايتها شاقة وصعبة ومريرة تتكاتف ضدها أعاصير عدة الاحتلال ومعتمدة الشرس ، والخديوي الذي يدفع المال ويطلب الثمن ولاءاً له وليس للوطن ، والاستسلام المستشري في صفوف الصفوه ..

لكن مصطفى كان مصمماً على المضي في طريقه .. فيقول في رسالته لمحمد فؤاد سليم « وعلى اية حال فليست هذه الافكار ما يضعف عزمي او يثبط همّي فانا أعمل الليل والنهار بعزم وهمه حقيقيتين متوكلاً على الله واثقاً بالمستقبل . » [1]

وسرعان ما اتسعت الدائرة لتشمل الكثيرين .

* * *

ويبدو ان مصطفى كامل لم يكن متعجلاً في اعلان حزبه السري. ربما انتظاراً لظرف سياسي افضل ، وربما املاً في استجماع عدد اكبر من الانصار والمؤيدين .

لكن جماعة « المعتدلين » سارعت باعلان حزب الامـــة

---

(١) المرجع السابق .

بتأييد ومباركة من كرومر .

ويكتب مصطفى إلى فريد رسالة عاجلة يقول فيها « ان ظهور حزب الامة من اولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم إلى مسايرة المحتلين ، وان ما علمته كذلك عن عزم صاحب المؤيد على تأليف حزب باسم الاصلاح لخدمة سياسة السراي هذان الامران يحتمان علينا كل التحتيم ان نظهر حزبنا الوطني بالرغم منا في مظهره الحقيقي ، حتى يعلم العالم كافة ان للوطن المصري حزباً يطلب بعزيمة صادقة الجلاء والدستور » (١)

وسريعاً يحتشد الانصار ، وفي ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ يقف مصطفى كامل في مسرح زيزينيا بالاسكندرية وسط حشد هائل من ستة آلاف شخص .. يقف مصطفى في هذا الحشد الهائل الذي تعالت هتافاته « تحيا مصر » ،.. ليصب في آذان مصر كلها انغاماً من الحماس الدافق والوطنية الصادقة « بلادي بلادي .. لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ، لك عقلي ولساني ، لك لبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » .

ويمضي مصطفى كامل معلناً منهاج حزبه « اننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا كونوا اسعد حظاً منا وليبارك الله فيكم ويجعل النصر

---

(١) أنور الجندي– عبد العزيز جاويش – سلسلة أعلام العرب – الدار المصرية للتأليف والترجمة ص ٢٧ .

على ايديكم ويخرج من الجماهير المئات والالوف بدل الاحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الاهلية والاستقلال المقدس » .

وكان اعلان قيام الحزب الوطني نقطة تحول في تاريخ الحركة الوطنية المصرية ، كان فيصلا بين الوطنية الصادقة وبين العمالة او التهادن او المناورة . كان بالنسبة للوطنية الصحيحة نقطة ابتداء .. وبداية انطلاق .

لكننا مع ذلك نلاحظ ان خطاب مصطفى كامل في مسرح زيزينيا كان معتدلاً غاية الاعتدال خاصة بالنسبة للقضية الوطنية ولعله حاول بذلك ان يلتف على مظاهرة حزب الامة الذي كان مؤهلاً في ذلك الحين لكسب بعض العناصر التي توجهت نحو الحزب الوطني . وذلك في حالة بروز أية نزعة متطرفة في شعارات مصطفى كامل ومنطلقاته . لقد كون رجال حزب الامة كل رصيدهم من إدعائهم بأن التطرف لن يفيد .. فلا بأس من بعض المداراة او الاعتدال . فمصطفى كامل في خطابه الشهير لا يطلب الاستقلال الكامل لمصر لكنه يطلب وبشكل محدد « منح مصر الحكم الذاتي او استقلالها الداخلي طبقاً لمعاهدة لندن ١٨٩٠ وضمانات الفرمانات الشاهانية التي وعدت انجلترا باحترامها رسمياً » (١) ولقد يكون مصطفى قد تقيد ايضاً برغبته في إرضاء العثمانيين الذين كانوا يساعدونه ضد

---

(١) أحمد رشاد – مصطفى كامل ، حياته وكفاحه . مطبعة السعادة (١٩٥٨) ص ٢٧١ .

الاحتلال ولكن ليس إلى درجة استقلال مصر عن الخلافة العثمانية ..

وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ اجتمعت الجمعية العمومية للحزب بمقر جريدة اللواء . . وحضر الاجتماع الف مندوب وانتخبوا لجنة ادارية من ثلاثين عضواً بالاضافة إلى الرئيس (مصطفى كامل) .

واجتمعت اللجنة الادارية لتنتخب بدورها احمد فائق ومحمد فريد نائبين للرئيس ، ومحمد فؤاد سليم سكرتيراً عاماً وعمر سلطان اميناً للصندوق .

لكن مصطفى كان يخطب في مسرح زيزينيا في ٢٢ اكتوبر وهو يعاني من مرض خطير أنهك قواه ، فأعلن قيام الحزب ثم لزم فراش المرض .. حتى فارق الحياة .

وترك مصطفى كامل وصية يعرفها كل رجال حزبه « ان يخلفه محمد فريد في رئاسة الحزب [١] »

لكننا نخطىء كثيراً لو تصورنا ان مصطفى قد رحل تاركاً الحزب الوطني وليداً صغيراً في دور التكوين .. ففترة العمل السري الطويلة ، والنضال السياسي المستمر والشجاع كانت قد جعلت من الحزب الوطني حتى قبل ان ينشأ علناً تنظيماً جماهيرياً حقاً ، ومرهوب الجانب من خصومه ، وحائزاً

---

(١) محمد علي غريب – المرجع السابق ص ١٠ .

على ثقة ومحبة واحترام مصر كلها ..

لقد سجل الحزب الوطني — حتى قبل ان يعلن — انتصاره الساحق على سياسة كرومر .

وقد بلغ نشاط الحزب ذروته خلال حادث طابة (١٩٠٦) ، وحادث دنشواي (يونيو في العام نفسه) اذ استطاع ان يعبىء الشعور الوطني ضد الاحتلال ، ويجمع حوله صغار الملاك والفلاحين والحرفيين بالاضافة إلى التجار والمثقفين واشتدت حملة مصطفى كامل على الاحتلال في داخل البلاد وخارجها حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى تعديل سياستها في مصر بالعدول — تدريجياً — عن سياسة الشدة واشراك العناصر المصرية من مثقفي الاعيان في الحكم الذي كان قاصراً — حتى ذلك الوقت — على الذوات الاتراك دون غيرهم ، فكان تعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف (اكتوبر ١٩٠٦) ثم تبع ذلك استقالة كرومر (مايو ١٩٠٧) [١]

والحقيقة ان مصطفى كامل ورجاله حتى قبل ان يعلنوا حزبهم قد نجحوا نجاحاً تاماً في محاصرة خصومهم وايقافهم امام الجمهور موقف المتهم المدان .

.. وعندما يلتقي مصطفى كامل بفتحي زغلول قاضي دنشوان في منزل سعد زغلول يرفض ان يصافحه ، فيكون

---

(١) مذكرات محمد فريد — المرجع السابق — مقدمة د . رؤوف عباس ، ص ٥٠ .

رفضه هذا اشارة بدء بموقف شعبي شامل ضد قضاة دنشواي . موقف التزمت به مصر كلها .. حتى احمد شوقي بك شاعر الارستقراطية المصرية رفض ان يحضر حفل تكريم اقيم لفتحي زغلول وارسل إلى لجنة التكريم اربعة ابيات من الشعر يقول فيها :

اذا ما جمعتم أمركم وهممتموا
بتقديم شيء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين
لا تقرؤا شعري عليه فحسبه
من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تنشروه في شبرد بل انشروا
على ملأ في دنشواي حزين

وكانت « اللواء » جريدة مصطفى كامل سلاحاً اعلامياً ماضياً امتلك ناصية التأثير على المناخ السياسي المصري ، واصبحت « اللواء » اداة تجميع وتنظيم للجماهير وليس مجرد وسيلة اعلام .

وتعليقاً على الدور التنظيمي الذي لعبته اللواء يكتب المؤرخ « لاندو » « ففي الوقت الذي تصدر فيه الجماعات والاحزاب في اوروبا جرائدها .. نجد في مصر ان المجامع تتبلور حول الجريدة التي انشئت بالفعل وبمضي الوقت تتكون الأحزاب

وتتجسد الأهداف والأنشطة والقيادات ولكنها تظل مركزة في الجريدة وقد فطن مصطفى كامل إلى اهمية اصدار جريدة كبرى يدعو فيها لمبادئه وآرائه وليقوى الروابط بينه وبين تلك العناصر التي ينوى في المستقبل القريب ان يكون منها الحـــزب الوطني » [1]

وبرغم ان « حزب الأمة » قدسبق تكوين «الحزب الوطني» وسبقه كذلك حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .. فان مؤرخاً محايداً مثل « لاندو » يقول « وكان الحزب الوطني هو التنظيم الحزبي الاول الحقيقي في مصر الحديثة » [2]

لـماذا ؟

ليس فقط لانه كان الحزب الاكثر شعبية والذي انتهج سياسة وطنية اكثر راديكالية .. وانما ــ وهذا هوالاهم ــ لانه الحزب الذي نبع من وجدان مصري ، وبوازع وطني ، ولم يكن « صناعة اجنبية » .

فحزب الامة كان صناعة انجليزية ، هكذا يعترف الانجليز انفسهم .

يقول اللورد جورج لويد في صراحة « وبفضل مجهود اللورد كرومر تأسس في اكتوبر ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب

---

(١) جاكوب لاندو ــ الحياة النيابية والأحزاب في مصر ــ ترجمة سامي الليثي ــ مكتبة مدبولي (د . ت) . ص ١١١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٧ .

الامة ، وصحيفته الجريدة . وقد كان اكثر اعضاء هذا الحزب بعثاً للامل رجلاً اصبح اسمه فيما بعـــد من اهم الاسماء في تاريخ مصر الحديثه وذلك هو سعد زغلول » (١)

بل ان كرومر نفسه لا يخفي هذه الحقيقة بل يوردها في تقرير رسمي مؤرخ في ١٥ ابريل سنة ١٩٠٧ فيقول :

« ان الحزب الوطني (لم يكن الحزب قد اعلن بعد) لن تكتب له الحياة لتعصبه من جهة ولطموح اعضائه من جهـــة اخرى ، فأعضاؤه يتصفون بالحماس الزائد وحبهم لاثارة القلاقل والاضطرابات ، ولذلك فانهم غير جديرين بالزعامة في قيادة مصر » .

ثم يمضي قائلاً في صراحة غريبة ان في مصر انـــاساً اتصفوا بالحكمة والروية يعملون في سكون وتؤده لتطور البلاد تطوراً بطيئاً يؤتي بالثمرة المرجوة ، واولئك هم الذين يستطيعون حقاً تكوين حزب صالح يكون على رأسه سعد زغلول » (٢)

.. كتب كرومر ذلك قبل اعلان حزب الامة بعدة اشهر

* * *

ولكي نستطيع ان نقيم تقييماً حقيقياً دور الحزب الوطني سواء قبل اعلانه رسمياً او بعد ذلك يتعين علينا ان نلقي نظرة

---

(١) Lloyd — Egypt Since Cromer — p.p. 192.

(٢) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ٢٣٩ .

على البديل الذي اعده الانجليز ، أي على سياسة « حزب الامة »

ولنأخذ هذا الحزب بأقوال جريدته .. واقوال قادته :

تقول الجريدة « ان الوقت لم يحن لمناقشة قضية الاحتلال ، فالاستقلال لا ينال الا بالتدريج ، لان الطفره محال . وعوامل التشبث بها خطرة جداً » [1]

ويكتب لطفي السيد محدداً سياسة « الجريدة » فيقول « ان الجريدة لم تنشأ لكي تحابي السلطة الشرعيــة (الخديوي) او السلطة الفعلية (الاحتلال) ولا لكي تعادي واحدة منهما ، ولا لكي تنتصر لاحداهما على الاخرى »

ويكتب لطفي السيد ايضاً « سياستنا مع الانجليز لا تخلو من احد وضعين : اما سياسة عناد وعداء واما سياسة مسالمـة لا استسلام ، ولا شك ان سياسة المعاندة عقيمة ، اذ كيف يقبل المعاند من معانده حسابه على اعماله ، بل كيف يرجو العدو من عدوه اصلاحاً له ، فلم يبق الا سياسة المسالمة والمحاسنــة مقرونة بالمحاسبة وأول مظاهر المحاسنة المجاملة في المعاملة » [2]

ويكتب قائد آخر من قادة الحزب هو علي باشا عبد الرازق مؤكداً « ان الانجليز ارحم بالبلد وادنى إلى رعاية مصلحته من الخديوي » [3]

---

(١) الجريدة ١٩٥٧/٩/٣٠ .

(٢) فتحي رضوان – المرجع السابق – ص ٨٧ .

(٣) آثار مصطفى عبد الرازق – تقديم علي باشا عبد الرازق – دار المعارف (د . ت) المقدمة ص ١٣ .

اما حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية (الشيخ علي يوسف) فكان يرى « ان حل قضية الاحتلال يكون بالاعتماد على الوعود والتصريحات التي بذلتها بريطانيا عند قيامها باحتلال مصر .. ومطالبتها بالوفاء بها » (١)

وكان الحزب الوطني الحر (وحيد بك الايوبي) يرى ان الخير يكمن في مسالمة الانجليز إذ أن مصلحة الوطن تكمن في « الاعتماد على الدولة المحتلة العادلة في جميع شئونها المادية والادبية » (٢)

أما الحزب المصري (اخنوخ افندي فانوس) فقد تمادى في تراجعه إلى درجة مطالبته « بتنظيم علاقة مصر بانجلترا في شكل معاهدة تتيح للمصريين ادارة الأمور الداخلية للبلاد تحت الحماية البريطانية » (٣)

كان هذا هو المناخ السياسي الذي حاول « المعتدلون » و«الاحتلاليون» ان يشيعوه .. وعلى ضوئه يمكننا ان نقدر حقيقة وعظمة الدور الذي لعبه الحزب الوطني في خلق مناخ وطني حق ، مصري حق ، معاد للاحتلال .. ومستعد للنضال ضده .

تبقى بعد ذلك شهادة مهمة .. لعلها تحدد ملامح دور كل

---

(١) المؤيد ١٩٠٧/١٢/٩ .

(٢) المقطم ١٩٠٧/٧/٥ .

(٣) Alexander — The Truth About Egypt — London (1911) — p.p. 174.

هذه الاحزاب « المعتدلة » او « الاحتلالية » .. بالمقارنة بدور الحزب الوطني .

يقول عبد العزيز فهمي باشا في مذكراته « فلأجل ازالة الاعتراض الوارد على طريقة الحزب الوطني .. قام جماعه من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الاجراءات وأسسوا حزب الامة » (١)

نشأة حزب الامة .. كانت اذن مرتبطة بالحزب الوطني بل هي بالتحديد « من اجل ازالة الاعتراض الوارد على طريقته » ... رغم ان حزب الأمة اعلن قبل ان يقوم الحزب الوطني رسمياً ، المسألة اذن واضحة . كان الحزب الوطني موجوداً ، قائماً ، راسخاً ، منتشراً وسط الجماهير فقط لم يعلن عن وجوده رسمياً . وحاول كرومر ان يسحب البساط من تحت اقدامه باعلان قيام حزب الامة .. فاضطر مصطفى كامل ورفاقه إلى الاعلان عن حزبهم .

ويقارن السير فالنتين شيرول بين الحزب الوطني .. وكل الاحزاب الاخرى التي نشأت معه او قبله او بالدقة التي انشئت معه او قبله كي تنافسه او تناوئه فيقول « كان الحزب الوطني هو الحزب الاكثر عدوانية ضد الانجليز ، لقد كان يقاوم الانجليز بحدة وبمرارة .. اما جريدته اللواء فقد استطاعت برغم

---

(١) عبد العزيز فهمي – هذه حياتي – كتاب الهلال – ابريل ١٩٦٠ – ص ٧٨ .

امكانياتها الذاتية ان تقض مضاجعنا بهجماتها العنيفة » [1]

وعندما مات مصطفى تصور البعض ان الفرصة سانحة لاقتناص الحزب الوليد .. وضمه إلى قائمة الأحزاب العملية .. بتنصيب عميل لهم رئيساً للحزب ..

ويروي محمد فريد وقائع هذه المحاولات في مذكراته فيقول «من يوم وفاته (مصطفى كامل) ابتدأ الخديوي يدس دسائسه لانتخاب رئيس يكون طوع أمره ليستعمله في أموره الشخصية فأرسل رجاله في الجنازة والمأتم .. وحتى الشيخ علي يوسف عدو مصطفى والمنافس له في جميع اموره ، حضر المأتم في الليالي الثلاث الاول وكذا عرفي باشا ورجاله ايضاً وأخذوا يرشحون من يتوسمون فيهم الطاعة من الرؤساء مثل يوسف المويلحي أو عرفي باشا ، وبعضهم رشح الشيخ علي نفسه ... كل هذا لم يفد .

وفي يوم انعقاد الجمعية العمومية التي كنت دعوتها يوم ١٤ فبراير اي بعد الوفاة باربعة أيام انتخبت بالاجماع وممن لعبوا دوراً مهماً في هذه المسألة بايعاز من الخديوي ، علي بك فهمي كامل ، فانه كان يريد ان ينتخب بصفته اخاً للفقيد ، وجهز أوراقاً مكتوب عليها اسمه ووزعها على بعض الحضور وأدخل في الاجتماع الكثيرين من غير الاعضاء بواسطة من وضعهم

---

(١) Valantine Chirol (Sir) — The Egyptian Problem — London (1920) — p.p. 112.

عند الباب من رجاله ، ولكنه لما رأى التيار قوياً ضده حول الدفه وخطب في الحضور مرشحاً لي بناء على جواب كان كتبه له أخوه من اوربا يوصيه فيه بانتخابي رئيساً لو فاجأه القدر المحتوم. وكان رجال الخديوي اثناء هذه الحركات يترددون على علي فهمي كامل ويشجعونه على السعي في ان ينتخب واعدينه بمساعدة الخديوي المادية والادبية وهو لطمعه وحبه للمال كان يميل إلى وساوسهم ولكنه خاب .

وعندما انتخب فريد بالاجماع وفشلت كل محاولات اقصائه حاول الخديوي احتواءه .. او بالدقة شراءه .. ويتحدث فريد في مذكراته قائلاً «يوم انتخابي طلبني الخديوي بالتليفون فتوجهت إلى سراي عابدين بعد الظهر فقابلني على الفور وهنأني بكل لطف مؤملاً الخير الكثير من وجودي في مركز الرياسة . ومن عباراته لي هذه الجملة أو معناها « ان وجود مثالك على رأس الحركة الوطنية مفيد جداً ، لانك لست محتاجاً ولا طالباً للمال ولانك من عائلة خدمت البلاد . . ولا يمكن للانجليز ان يقولوا عنك طالب شهرة ، أو مال ، او وظيفة » الخ من هذه العبارات اللطيفة ثم سألني عن حالة الجرايد فاخبرته بانها ستسير باذن الله .. ثم عرض علي استعداده للمساعدة المالية فرفضت حتى لا اكون أسيره وطوع امره وانصرفت . رأى الرجل عقب ذلك باني لست ممن يطيعون اوامره اطاعة عمياء فاخذ يدس الدسائس لاسقاطي من جهة ويظهر لي التودد من

جهة أخرى » [1]

وهكذا فشلت محاولات ابعاد فريد وفشلت محاولات شراثه .. ووقف فريد شامخاً يرثي مصطفى بمناسبة مرور اربعين يوماً على وفاته فيقول « ان احسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو ان نسير في الطريق الذي رسمه ومهده لنا ، وان نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق او مخاتل ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك ابراجها وتحصينها بالنظام النيابي الدستوري حتى لا يمكن اخراجنا منها ثانياً .. ان احسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح اليه روحه الشريفة الطاهرة هو ان نبرهن للعالم اجمع ان مصطفى كامل لم يمت ، وان روحه اتحدت بروح واجب الاستمرار وواجب دعوة الاحياء إلى العمل » [2]

.. وقد حاول البعض ان يعقد مقارنة بين مصطفى كامل وبين فريد .

يقول محمد علي غريب « وهنا لا بد ان نشير إلى الفوارق الواضحة بين الزعيمين ، فالاول كان من عامة الشعب ، والثاني كان من خاصته . وكان مصطفى كامل في زعامته اقرب إلى الشعبية ، وكان محمد فريد بعيداً عن الجماهير إلى حد ما ، على ان الذي جمع بينهما هو الوطنية فكلاهما كان يحب مصر ،

---

(١) محمد صبيح — المرجع السابق — ص ٢٢٣ . وراجع أيضاً مذكرات أحمد شفيق باشا . ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) أحمد رشاد — المرجع السابق — ص ٣٠٠ .

وكلاهما كان يفتدي حريتها بروحه » [١]

ويورد احمد رشاد رأيين احدهما للبارون كراوي فو يقول فيه ان مصطفى « لم يقع في الافراط ولا في العنف اللذين تجر الشهوة السياسية اليهما عادة ؛ وظل محتفظاً طيلة كفاحـــه بصفاء وكرامة لم يستطع خلفاؤه الاحتفاظ بهما دائماً بعد وفاته » والرأي الاخر للدكتور ماكس مايرهوف « ان الحزب الوطني لم يجد رئيساً في كفاءة مصطفى كامل » [٢]

ويقول المؤرخ فاتيكيوس « ان فريد لم يكن يمتلك الحماس ولا الجاذبية الشخصية التي كان يتمتع بهما سلفه ، ولان فريد قضى معظم الوقت منفياً خارج البلاد فانه لم يكن قادراً على ان يمارس قيادة فعلية على مؤسسات الحزب » [٣]

وبرغم انه لا يمكن المقارنة بشكل موضوعي بين قمتين شامختين .. اللهم الا اذا لجأنا للتفاصيل التي تكون المقارنة بينها غير مجدية وغير علمية ..

وبرغم اننا اوردنا هذه المقارنات لمجرد استكمال البعد الاكاديمي للبحث .. الا اننا نقرر انها مقارنات ظالمة .. وشكلية في اغلبها .

---

(١) محمد علي غريب – المرجع السابق – ص ١٠ .

(٢) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ٣٠٧ .

(٣) P. J. Vatikiotis — The Modern History of Egypt — London (1969) p.p. 218

.. فالحديث عن شعبية زعيم دون آخر هو كلام يستند إلى ظواهر سطحية صرفة قد يغري به الانتماء الطبقي والاسري ، لكن الاستقصاء التاريخي يؤكد العكس ففريد كان صاحب خطوة الالتقاء مع القوى الاشتراكية العالمية والعمل معها ، وهو صاحب فكرة الاتجاه بالنشاط الحزبي نحو العمال والفلاحين..الخ

اما المقارنات الاخرى فهي لا تستقر على قدمين حتى يمكن مناقشتها .

واذا كان مصطفى هو صاحب الخطوة الاولى .. التي استطاعت ان توقظ مصر ، وان تبعث بالحماس الوطني من اعماقها ، فان فريد كان الاداة المنظمة التي استطاعت ان تسير بعملية البناء التنظيمي للحزب الوطني نحو الاكتمال .

فمصطفى استنفذ كل طاقته ، وكل رحلته القصيرة في الحياة في الاعداد لبناء الحزب .. وبعد ان القى خطابه الشهير في حفل اعلان تأسيس الحزب .. آوى إلى فراش المرض تاركاً كل شيء في يد فريد .. الذي اثبت بتفانيه المخلص انه خير وريث لهذه المهمة الشاقة .

وكانت سفينة الحزب المليئة بالمتناقضات تهتز دوماً بفعل الامواج العاتية لكن فريد اثبت دوماً انه الربان الماهر ..

ولقد ظل فريد يعاني لفترة طويلة .. من تعقيدات العلاقة بين الزعيم المؤسس (مصطفى) وبين الحزب وسياسته وعلاقته ومستقبله .

فعلي فهمي كامل شقيق مصطفى ظل على الدوام اداة ضغط سلبي على فريد في محاولة لفرض التهادن او التحالف مع الخديوي .. وفريد يرفض التخلي عن المبدأ ويرفض التخلى عن شقيق مصطفى مهما كانت اخطاؤه .

ومنذ اليوم الاول لوفاة مصطفى شاهدنا كيف كـــانت خيوط الخديوي تحرك علي فهمي كامل ليطالب بالرئاسة لنفسه

ومنذ اليوم الاول ايضاً كانت الصفقة قـــد عقدت .. واوراق هامة تخص مصطفى ولا بد انها كانت تخص الحزب تتسرب للخديوي مقابل مبلغ من المال ..

ومع ذلك لا يستطيع فريد او لعله لا يريد ان يتخذ موقفاً من مواقفه الحاسمة العديدة ضد شقيق مصطفى كامل ..

ويروي فريد واقعة الاوراق في مذكراته .. فيقول بأسى ظاهر ، لعل فيه نبرة العتاب للزعيم الراحل الذي وثق في شقيقه اكثر من ثقته في خليفته وفي حزبه .. يقول :

« رغماً مما كان بيني وبين مصطفى من الصداقة والاخلاص المتبادل ، كان يخفي علي بعض اموره السياسيه الخاصه .. ومن ذلك مسألة « الاوراق » فاني لم اطلع عليها ، ولم أرها مطلقاً ، ولكن اشيع عقب وفاته ان أخاه علي بك سلم هذه الاوراق إلى « المؤيد » مقابل مبلغ عظيم .. فاخذت ابحث سراً وهاك خلاصة ما وقفت عليه سمعت من الدكتور صادق رمضان انه يعرف

الاوراق وان مصطفى كان محتفظاً بها جيداً ، ويضعها تحت مخدته في سرير مرضه ، وكان الدكتور يقول لو علمت ان علي يسلمها لسرقتها من مصطفى وكان هذا سهلاً عليه لانه كان الطبيب المعالج .. ولكنه هو الاخر لم يرها ، ويظن انها كانت عبارة عن جوابات من احمد شقيق باشا يحدد لمصطفى فيهـــا مواعيد مقابلة مع الخديوي باوربا او في بعض اماكن سرية بمصر وقال لي الدكتور المذكور ان الواسطة في اخذ هذه الاوراق كان خليل بك حمدي وكيل مدرسة البوليس ومحمود بـــك حسني ناظر مدرسة عابدين ومحمود بك ذهني من الملتصقين بالخديوي واحمد بك شوقي شاعر المعية وربما كان لدولار بك وكيل الخاصه الآن يد في كل ذلك . وان الخديوي بنفسه أتى بسيارة إلى ميدان الازهار ومعه شوقي بك واحد ياورانه (وهو الذي اخبر الدكتور بهذه التفاصيل) وهناك قابله علي بك وركب معه وسلمه الاوراق . » (١)

.. وبرغم ذلك صمم فريد على الا يتصادم مع علي فهمي كامل .. لسبب بسيط ، وهو ان طيف مصطفى قد ظل مهيمناً على الحزب .. وكان من الصعب بل من المستحيل تصور الحزب .. في صدام مع شقيق مصطفى كامل ..

مرة أخيرة .. لا مجال للمقارنة . لكل زعيم حسناته ولكل منهما نقاط ضعفه والقمتين الشامختين ستظلان على الـدوام

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق . ص ٢٣٨ .

مقيمتان جنباً إلى جنب في قلب مصر الذي نبضت دقاته في حبهما اعذب الحان النضال الوطني .

* * *

وبرغم كل العقبات استطاع فريد ان يجعل من الحـزب كياناً عملاقاً .. ومليء السمع والبصر .

وتصل الموجة إلى أقصى إرتفاعها عام ١٩٠٩ ــ ١٩١٠ عندما يصبح الحزب الوطني الحقيقة الوحيدة في ميدان السياسة المصرية حقاً والوطنية حقاً .. وعندما تستيقظ الجماهير المصرية وتتحرك في إطار هذه الحقيقة وتحت رايتها ..

ويبدي السير الدن غورست معتمد بريطانيا في مصر إنزعاجه الشديد من سياسات الحزب الوطني وما تحققه مـن نجاح .. وذلك في تقريره السنوي « عن المالية والادارة ، والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩١٠ »

فيقول « تناول تقريري الماضي زمناً حرجاً في عهد تقدم مصر السياسي ، وصدر والناس لا يزالون يتذكرون اقشعرارهم من قتل المرحوم رئيس النظار السابق بيد النذاله ، ومـن المظاهرات العنيفه التي جرت ضد الانجليز على سبيل الحماقة والجهالة حتى بلغت شدتها برفض الجمعية العمومية لمشروع قنال السويس بلا مناقشة حقيقية فحال ذلك دون نظر ــ الانجليز

والمصريين إلى الحالة بسكون وروية » [1]

ويمضي غورست في تقريره مهاجماً حتى « مجلس شورى القوانين » والجمعيه العموميه متهماً اعضائها بانهم اصبحوا أداة في يد الحزب الوطني ويقول « لكن مجلس شورى القوانين هو والجمعية العمومية اظهرا في سنة ١٩٠٩ وفي النصف الاول من سنة ١٩١٠ ميلاً متزايداً إلى ان يكونا آلتين بأيدي الحـــزب الوطني يستعملها في تحريضه وتهييجه على الاحتلال البريطاني . فان طلبهما المتكرر لحكومة دستورية تامة وحملاتهما المتكررة على الحكومة فيما يتعلق بالميزانية والسودان والعداوة والريبة اللتين اظهراهما في مشروع قنال السويس وتجاوزا فيهما حد الاعتدال كانت كلها في جوهرها مظاهرات ضد الانجليز طوعاً لتحريض الحزب الوطني » .

وهو يحدد في تقريره هذا فهم دار المعتمد البريطاني للاستراتيجية التي حددها محمد فريد لسيره الحزب والحركة الوطنية . فيقول « ان الفكرة الكبرى عند هذا الحزب هي ان يبطل الاحتلال البرطاني بجعل قضائه لمهمته امراً مستحيلاً . . والوسائط العظمى التي يستعملها لبلوغ غايته هذه هي تقويض اركان نفوذ الانجليز بدوام الطعن عليهم وشتم كل المصريين .

---

(١) ألدن غورست (السير) — تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩١٠ . مرفوع من السر ألدن غورست إلى السير ادوارد جراي. المقدمة صفحة د .

الذين لا يعارضون المراقبة البريطانية والتحريض على الاحتلال بانتظام وكلما سنحت الفرصة . فالجمعية ومجلس شورى القوانين جعلا نفسيهما مساعدين على قضاء تلك الاوطار » (١)

وعندما يأتي كتشنر فانه لا يملك هو ايضاً سوى الشكوى . من نفوذ الحزب الوطني .. وينقل في تقريره رأي غرفة التجارة البريطانية في مصر .. وما أبدته من قلق بسبب نشاط الحزب .. ان لجنة غرفة التجارة البريطانية بمصر تنظر بهم وانشغال بال إلى حاسات القلق وعدم الامن التجاري في مصر لان ذلك يؤثر في مصالح البلاد التجارية كثيراً . والغرفه ترى ان هذه الحاله ناتجة بالاكثر عن افعال المحرضين الوطنيين فتلح مع مراعاة واجب الاحترام على حكومة جلالة الملك في اتخاذ التدابير المبطلة لهذا التحريض ورد السكينة اللازمة لرواج التجارة ولخير مصر عموماً » (٢)

ان كتشنر يرفع صوت المستثمرين البريطانيين في مصر .. مطالباً باسمهم بالتشدد لضرب الحزب الوطني ..

ثم هو يحذر حكومته من انه اذا كانت خططها لمحاصرة الوطنيين الراديكاليين تحت زعامة محمد فريد بواسطة العناصر

---

(١) المرجع السابق ص و .

(٢) كتشنر (الفيكونت) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩١٢ مرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير ادوارد جراي. ترجم في ادارة المقطم وطبع في مطبعته ، سنة ١٩١٣ ص ٣ .

المعتدلة والمتهادنة قد فشلت فان خطة التفرقة بين المصريين المسلمين والمصريين الاقباط فشلت هي ايضاً بفضل استنارة محمد فريد وايمانه العميق بوحدة المصير والنضال للمصريين جميعاً ..

وينعي كنشنر إلى حكومته سياسة التفرقة بين عنصري الامة فيقول « ولنعد إلى تقصي اخبار الحوادث التي ادت إلى عقد مؤتمر قبطي فأقول : ان المحرضين من الاقباط غيروا في اول هذه السنة خطتهم في النزال والنضال فتظاهروا بانهم اصبحوا على وئام واتفاق تام هم وخصومهم في الدين وادارو رحى الحرب الصحافيه على الوزارة المصرية الحالية وعلى الاحتلال بحجة انهما هما المسؤولان عن الحيف الذي يزعمونه واقعاً عليهم في مركزهم » [1]

.. ويكون هذا التقرير التحريضي بداية لسياسة التشدد البريطانية والتي دارت فيها ماكينة العنف إلى اقصى مداه ضد محمد فريد وضد الحزب . وكان الانجليز والخديوي قد استنفذوا من قبل محاولات التقسيم والتفرقه والتشرذم في صفوف الحزب .

فبايعاز من الانجليز انقسمت عن الحزب الوطني مجموعة من الاقباط بزعامة اخنوخ فانوس في عام ١٩٠٨ واسمت نفسها « حزب مصر المستقلة » ، وبايعاز من الخديوي وفي عام ١٩٠٨

(١) المرجع السابق ص ٦ .

ايضاً انقسمت مجموعة اخرى بزعامة حسن حلمي بك وفرج الجرجاوي لتكون حزباً اسموه « حزب النبلاء »[1] من العناصر التي تدين بالولاء للخديوي .. لكن هذه الفقاعات ذهبت . . وبقي الحزب صامداً يزداد قوة جماهيرية..تحت زعامة فريد[2].

وتستمر الموجة الوطنية في الصعود .. وتتعزز معها مواقع الحزب الوطني وصلاته بالجماهير وتتعدد اسلحته النضالية .. النقابات العمالية ، الجمعيات التعاونية الزراعية ، الجمعيات التعاونية الاستهلاكية، المسيرات والمظاهرات الشعبية ، العرائض التي تضم عشرات الآلاف من التوقيعات للمطالبة بالدستور ، الصحافة الوطنية التي تحرض المشاعر الوطنية وتلهبها ، وفي ٢٠ يناير ١٩١١ يتوج كل ذلك باجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطني بدار العلم وكان المجتمعون نحو الفي عضو ووقف فريد في الجمع المتقد حماساً ليلقي خطاباً جاء فيه « مما يجعل لهذا الاجتماع شأناً خاصاً انه ختام المدة التي انتخبني الاخوان فيها خادماً لهذه الحركة ، كما انتخبت اللجنة الادارية لتكون المديرة لها والمسددة لخطواتها في طريق الخدمة الوطنية بقدر ما يصل اليها اجتهادها، ولقد اتممنا مهمتنا واليوم نسلم إلى حضراتكم ادارة الحزب الوطني لتنتخبوا من ترون فيه الكفاءة والاستعداد للاستمرار في خدمة البلاد وكونوا واثقين ايها الاخوان اننا نكون دائماً إلى آخر نسمة من حياتنا وآخر قطرة من دمنا في

---

(١) لاندو – المرجع السابق ص ١٤٧ – ١٤٩ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ٢٦٢ .

اول صفوف المجاهدين المدافعين عن حقوق الوطن المقدس » .

وكالعادة..يقف الخصم اللدود علي فهمي كامل بك، بعد ان يستنفذ كل مناوراته ليلقي كلمة حماسية يدعو فيها الجمعية العمومية إلى اعادة انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب ..

« وتقرر الجمعية العمومية بالاجماع انتخاب محمد فريد رئيساً للحزب الوطني مدى الحياة » [1]

* * *

لكن الاعاصير كانت تتجمع في سماء مصر ..

الحركة الوطنية المصرية تعاني من تحركها .. او تمردها منفردة في كل المنطقة بحيث بدا تحركها هذا نغمة نشاز في حالة السكون التي ترقد فيها المنطقة ككل ..

واوربا الاستعمارية تتفق معاً .. الوفاق الانجليزي الفرنسي يحبط كل مخططات القوى الوطنية للاستعانة بفرنسا ضد انجلترا ويستشعر بعض الوطنيين اليأس .. فما كانوا يتصورون انه بالامكان الاعتماد على « الشعب » .. فهم غريبون أيضاً عن الشعب وربما اعداء لحركته . وتركيا ، دولة الخلافة ، باب الاسلام العالي تتخاذل وتعجز عن مجابهة الانجليز بل هي في بعض الحالات تتآمر معهم ضد الحركة الوطنية المصرية التي

(١) عبد الرحمن الرافعي – مذكراتي ١٨٨٩ – ١٩٥١ – دار الهلال (١٩٥٢) – ص ١٨ .

تخشى من صعودها ومطالبتها بمصر للمصريين ، ويصل بهـا ـ الامر إلى تسليم الشيخ جاويش للانجليز لمحاكمته ..

والطبقة .. التي تنبع منها قيادة الحركة الوطنية طبقة ضعيفة غير متماسكة ، فهي تترنح بين معاداة الاحتلال والخوف من حركة الجماهير الشعبية ..

وتترنح بين الاحتلال .. والخديوي ، وبين الانجليـز والعثمانيين .. وبين شعار مصر للمصريين وشعارات الانتماء الاسلامي للخلافة التركية و « لا وطنية في الاسلام » ثم هناك السبب المحوري في هذا كله هو الضعف الاقتصادي للطبقة ..

فالتجار ذوو النزعات الاسلامية يرون في النشاط المصرفي وسعر الفائدة وباختصار في تحويـل تراكمات ارباحهم إلى « رأس مال » عملاً منافياً للتعاليم الشرعية الاسلامية .

وكبار الملاك العقاريين يعارضون الاحتلال ولكن باعتدال وهم لا يريدون اكثر من موطأ قدم في تلك القمة التي تنهب اموال وارزاق شعب مصر .. وما ان يلوح لهم الاحتلال بفتات السلطة حتى يتهالكوا لارضائه . والشعارات التي تنسجها الحركة الوطنية تحت زعامة فريد تتطلب تفانياً خاصاً واخلاصاً غـير محدود لقضية الوطن .. وقليلون هم الذين يحتملون .

شعار واحد من شعارات عديدة يضع كثيرين من كوارم واعضاء واصدقاء الحزب في حرج شديد .. ففريد يرى ان التوظف بالحكومة خضوع لارادة المحتلين ولا يقبله الا من

يقبل ان يبيع نفسه للاحتلال . وهو نفسه ترك وظيفة كانت تؤهله لو استمر فيها لارقى المناصب ولكنه القى استقالته في كبرياء ومضى .. فكم من الوطنيين يمكن ان يفعل مثله ؟

وكان الاحتلال يتابع ذلك كله .. ويدركه بعمق ، ويدرك دلالاته ونتائجه .. ولعله ادرك مبكراً واستعد له استعداداً جيداً .

وفي خلال الصعود العظيم للحركة الوطنية في عام ١٩١٠ كان السير الدن غورست يكتب لوزير الخارجية البريطانية في تقريره عن الحالة العمومية – وبعد ان افاض في شكواه من تصاعد نشاط الحزب الوطني – يكتب قائلاً « فالسبيل الذي يلزمنا سلوكه في المستقبل القريب بسيط واضح وهو تفهيم المصريين ان حكومة جلالة الملك لا تدع احداً يزحمها حتى تبعد أو تستعجل في سبيل منح الحكم الذاتي اكثر مما تقتضيه مصالح مصر اجمالاً في رأيها . وما لم يتعلم المصريون هذا الدرس الابتدائي حق التعليم فلا فائدة من اقتراح امور اخرى لترقية اختصاص مجلس شورى القوانين فان اختبار السنوات القليلة الاخيرة قد اثبت لنا انهم لم يدركوا هذه الاولية وهي ان السياسة البريطانية لا يمكن ان تحيد عن سبيلها المستقيم طوعاً لتحريض المحرضين من جهة أو لتعدي المعتدين من جهة اخرى.

وبعد ان يطالب « المعتمد » حكومته بالتشدد .. يقترح عليها الاهتمام « بالمعتدلين » لضرب الوطنيين فيقول « ومما يجعلنا نتفاءل ان الحالة اصبحت الان اصح مما كانت عليه في

السنوات القليلة المضطربة التي مرت بنا . فقد تغيرت خطة الفئة المعتدلة من الاهالي تغيراً حسناً بالنظر إلى سياستنا وادارتنا .. وكذلك اعمال مجلس شورى القوانين .. مما يبعث على الامل بأن يكون الجو قد صفا فيه ، وروح التعقل قد تغلب عليه » (١)

ويمضي عام واحد ، وبعدها يزف المعتمد الجديد الشرس كنشنر البشري لوزير خارجيته قائلاً « ويسرني ان اقول انه قد زادت الاميال السياسية اخيراً سكوناً وان معظم الاهالي اصبحوا على ما يظهر يهتمون بالنظر في الاصلاحات التي تعمل لخـير بلادهم اكثر مما يهتمون بالمناقشة في مسائل سياسية عويصة لا تؤدي إلى نتيجة نافعة » ويقول « ان ترقية اخلاق الشعب واعلاء سجاياه يتوقف معظمهما على نمو قوة ضبطه لنفسه وتسلطه على نزق طباعه حتى لا يطاوع اول دافع له من نفسه .. فجهاد الاحزاب في مناظرة بعضها البعض لا يفيد اكتساب صفة من هذه الصفات التي ينال بها التقدم » (٢)

وفي عام ١٩١٣ تكون الامور قد استقرت من جديد بالنسبة للاحتلال ويجد كنشنر الفرصة لاجراء مقارنة لصالح سياسته « مر مجلس شورى القوانين بعدة اطوار ، طور يبعث على الاسف وفيه سعى المجلس للتعرض لأمور يقتضي نفس تركيبه بانها خارجة عما يعنيه وانه غير صالح لابداء الحكم فيها .. مما

---

(١) ألدن غورست (السير) – المرجع السابق ص ح .
(٢) كنشنر (الفيكونت) – المرجع السابق ص ٣ .

دل على ان ترك مصالح البلاد العظيمة الشأن في أيدي رجال قليلي الاختبار تتسلط عليهم المؤثرات الخارجية ويدير زمامهم ذوو المآرب السياسية يكون محفوفاً بالاخطار وغير مأمون العواقب » .

كان هذا عند صعود الحركة الوطنية .. اما في عام ١٩١٣ فان كتشنر يرى « ان البلاد ادركت ما تؤدي اليه نصائح المتطرفين من وخامة العاقبة فمالت إلى ضدها برد الفعل . . وأعقب ذلك الطور الاخير وهو طور الاعمال النافعة التي يذكر خبرها بالرضى والسرو .. واظن ان الاختبار الماضي اظهر للمصريين انه لا يرجى خير من السعي في الارغام على العجلة بالتحريض وبالمعارضة .. وأرجو ان يكونوا قد تعلموا من العبر الماضية وجوب ابعاد المتطرفين المشاغبين وكذلك المؤثرات السياسية الخارجية » [١]

وتكتمل دائرة المأساة بهجرة فريد ، وسوف نتحدث عن هذه الهجرة في فصل قادم وما يهمنا هنا هو اثرها السلبي الحاسم في مسيرة الحزب ، ففي حالة الجذر ، وانحسار المد الثوري وتراجع الكثيرين بعيداً عن درب النضال ، واضطراب

(١) كتشنر (الفيكونت) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر ١٩١٣ مرفوع من الفيكونت كتشنر إلى السير ادوارد جراي. ص ٩ .

المتحمسين بين العمل السياسي المتعثر والذي يتطلب صبراً وايماناً عميقاً بالشعب وبين اعمال العنف ذات الطابع الارهابي .... وتسلل عملاء الاحتلال إلى صفوف الحركة .. البعض يجرها تعنتاً نحو التهادن والاعتدال والبعض يستدرجها نحو العنف والتهور ليتيح الفرصة للاحتلال كي يضرب بمزيد من العنف والارهاب .. والخديوي ورجاله يدمرون وحدة الحزب ويحثون على التمرد على فريد باعتباره الرمز لاستقلالية الحزب وتشبثه بالمبادىء .

.. في هذا المناخ هاجر فريد .. « فتأثرت الحركة الوطنية من هجرته .. وتوقف إلى حد كبير انشاء النقابات والجمعيات التعاونية ومدارس الشعب واصيبت حركة الانبعاث القومي الثوري التي كادت تشمل البلاد جميعاً ابتداء من عام ١٩١١ بالانكماش والضعف ، حتى قيادة الحركة الوطنية الممثلة في اللجنة الادارية للحزب الوطني قد اصابها الانقسام ولم تعد قادرة على الاجتماع لبحث اخطر الامور التي مرت بالبلاد »[١]

وهكذا تأتي هجرة فريد من مصر في وقت بالغ الصعوبة.. بينما الانواء تعصف بالسفينة من كل جانب ، والمؤامرات تحاك ضدها .. اذا بالربان يغادرها .

وتكون هجرة فريد بمثابة انقطاع التيار الكهربي عن ماكينة

---

(١) صبري أبو المجد – أمين الرافعي – كتاب الجمهورية – العدد ٢٣ ديسمبر ١٩٧١ ص ٥٤ .

العمل الوطني .. كان عوامل موضوعية عديدة تتراكم ، وتتجمع ، وتترك آثارها السلبية ، لكنه شخصيه فريد الاسره واصراره الحاسم على استمرار دفع حركة العمل الوطني كانا يحفظان للعمل الوطني قوة اندفاعه .. ثم فجأة هاجر الزعيم .. وحدث الشلل .

.. وتظهر اعراض الانهيار سريعاً .. في مارس ١٩١٢ هاجر فريد .. وفي ٦ اغسطس ١٩١٢ يتلقى وهو في مهجره رسالة من الدكتور اسماعيل صدقي يقول له فيها « ان الاسف يخالجني بأشد تأثيره كلما رأيت الضعف قد تغلب على تلك الهمم التي كانت عمادنا في القيام بمأموريتنا وتنفيذ مبادئنا .. رأيتم اجتماع مجلس ادارة جمعية السلام ولم أر غير وجوب ذلك وقد جاهدت في الحصول عليه فكانت النتيجة مضاعفة الاسف عندي اذ لا يوجد من الاعضاء من يوافقنا في الظروف الحاضرة » (١)

.. والزعيم بالخارج يستحث الهمم دون جدوى .. يزأر دون صدى : واللجنة الادارية للحزب تطل منها نفس الرؤوس المعادية والتي كانت تتراجع جبناً وخوفاً من التأثير الطاغي للزعامة ..

ويروي صبري ابو المجد الواقعة التالية « وبلغ الامر باللجنة الادارية للحزب ، ان اصبح بعض افرادها يؤيد الاتفاق مع

(١) المصور ١٤/١١/١٩٦٩ .

الخديوي والبعض يعارض هذا الاتفاق . إلى ان اجتمعت في سبتمبر ١٩١٢ لبحث موضوع مقالات كان محمد فريد قد نشرها في صحيفتي « لي سيكل » و « لاكسيون » الفرنسيتين تتضمن طعناً في الخديو عباس حلمي الثاني وتكشف اتفاقاً سرياً تم بينه وبين انجلترا تتولى بريطانيا بمقتضاه حماية مصر وفصلها عن الدولة العلية مقابل تنصيب الخديوي خليفة للمسلمين . وقد ابلغ علي فهمي كامل بصفته وكيلاً للحزب الوطني محمد فريد بوصفه رئيساً للحزب بخطاب مؤرخ في ١٣ سبتمبر ١٩١٢ ، يسأله فيه طبقاً لقرار اللجنة « عما اذا كانت هذه المقالات بقلمه ام لا » ويخبره بأن اللجنة قد حددت له ثلاثة اسابيع للدفاع فيها عن نفسه طبقاً للقانون الاساسي للحزب والا فانها تعتبر عدم رده امتناعاً عن الاجابة . وقد احدث هذا القرار من اللجنة الادارية ثورة داخل اللجنة ذاتها وداخل الحزب ايضاً . امـــا داخل اللجنة فقد رأى المسالمون للخديوي نشر قرار استنكار اللجنة للمقالات في الصحف فلما لم ينشر استقالوا ومن بينهم علي المنزلاوي ومحمود فهمي سكرتير الحزب وفي داخل اللجنة الادارية ايضاً هدد الممالئون لمحمد فريد بالاستقالة اذا نشر اي شيء يتعلق باستنكار اللجنة لهذه المقالات موضع التحقيق . وفي داخل الحزب رأت الغالبية ان مجرد اثارة هذا الموضوع والحديث عن التحقيق مع محمد فريد رئيس الحزب الذي انتخبته الجمعية العمومية للحزب للرئاسة مدى الحياة يعد عملاً غـــير

قانوني وغير اخلاقي في الوقت نفسه »[1] .. وكان رد فريد صفعة قاسية لخصومه .. فقد ارسل إلى علي فهمي كامل قائلاً « مراعاة لمصالح الحركة الوطنية اقدم هذه الاستقالة من رئاسة الحزب وعضوية اللجنة الادارية راجياً عرضها على الجمعية العمومية المختصة دون غيرها في قبولها مع التأكيد بأني باق على مبادىء الحزب العشرة خادماً لها وللوطن المحبوب إلى آخر نسمة من حياتي التي وقفتها على خدمة الوطن واهله » ولم يجرؤ علي فهمي كامل على عرض الامر على الجمعية العمومية . فهي مع فريد باجماعها .. وهي معه ضد كل خصومه ومناوئيه .

ولست اريد ان اطيل .. فقط سأكتفي في هذا الصدد بفقرة من رسالة لعلها تلخص كل شيء .. وتكشف العمق الحقيقي للمأساة ..

تلقى فريد وهو يعاني من مأساة الهجرة رسالة من فاقوس مؤرخة في ١٣ يونيه ١٩١٤ وموقعة من احمد وفيق ، والرسالة من اثنتي عشرة صفحة تصف للزعيم وصفاً تفصيلياً احوال الحزب وما تردت اليه ، والصراعات التي تموج في داخله .. تقول الرسالة « اننا عدد قليل جداً وبكل اسف لانعمل عملاً مطلقاً ، والحركة نائمة وتغط في النوم واذا كنتم قد قلتم في خطبتكم التي ارتجلتموها ان ابا الهول لم ينم الا بعين واحدة والثانية تنظر إلى الامم التي فتحت مصر ، فربما يكون هذا القول صحيحاً بعد

(١) صبري أبو المجد – المرجع السابق ص ٥٥ .

افتتاح الجمعية التشريعية » ، اما نومه من بعد سبتمبر ١٩١٢ إلى اكتوبر ١٩١٣ فكان عميقاً . واذا سمحت لي ان اقول ان النوم ابتدأ بعد مفارقتكم لهذه البلاد التعسة ، وأني اقسم لك اني لو علمت ان مصير حركتنا سيكون كذلك بعد هجرتكم لكنت اول من القى القبض عليك لتمضي السنة ثم تخرج بعدها ، كما خرجت عقب الاشهر السته » .

.. ولست اريد ان اضيف اي تعليق .

وتواكب هجرة فريد مع اشتداد حدة العنف الذي مارسه الاحتلال ضد الحركة الوطنية وضد الحزب الوطني على الخصوص ..

ففي ٣١ اغسطس ١٩١٢ صدر قرار بتعطيل اللواء نهائياً بحجة انها عينت محرراً مسئولاً دون ان تحصل على اذن بذلك من ادارة المطبوعات .

وفي ٧ نوفمبر ١٩١٢ قررت الوزارة تعطيل جريدة «العلم» لسان حال الحزب الوطني لانها نشرت مقالاً لمحمد فريد عن رأيه في الحرب البلقانية وجاء في القرار :

« .. وحيث ان هذه الجريدة اعتادت نشر ما يكدر صفو الراحة العمومية ، فضلاً عن انها لسان حزب اتخذ رئيسه لنفسه خطة التهييج ، وحيث انه سبق صدور قرار بتعطيل هـذه الجريدة مرتين الاولى لمدة شهرين بتاريخ ١٩ مارس ١٩١٠ ،

والثانية لمدة ثلاثة اشهر بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١١ . فلهـذه الاسباب ومحافظة على النظام العام تقفل جريدة العلم التي تصدر بالقاهرة من تاريخه » [١]

** ** **

ثم تعلن الحماية البريطانية على مصر .

وتنشر الوقائع المصرية القرار .

« اعلان بوضع بلاد مصر تحت حماية بريطانيا العظمى »

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر إلى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته واصبحت من الان فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية .

وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية اهلها ومصالحها.

(ترجمة) القاهرة في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ »

وقبل اعلان الحماية .. اخضعت مصر للحكم العسكري ..

وفي نوفمبر ١٩١٤ صدر القرار التالي :

« ليكن معلوماً اني أمرت من حكومة جلالة ملك بريطانيا

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – محمد فريد – المرجع السابق ص ٣٤٤ .

العظمى بأن آخذ عليّ مراقبة القطر المصري العسكري لكي يضمن حماؤه فبناء على ذلك قد صار القطر المصري تحت الحكم العسكري من تاريخه

مكسويل الفريق
قائد الجيوش بمصر » (١)

وفي اليوم التالي لاعلان الحماية اعلنت الحكومة البريطانية خلع الخديو عباس الثاني

« اعلان بخلع سمو عباس حلمي باشا عن منصب الخديوية وارتقاء صاحب العظمة السلطان حسين كامل على عرش السلطنة المصرية » .

« يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر لاقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق على الانضمام لاعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه عن منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر على سمو الامير حسين كامل باشا اكبر الامراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله »

« ترجمة » القاهرة في ١٩ ديسمبر ١٩١٤ »

وقد سبق هذه الاعلانات اعلان من جانب الحزب الوطني

---

(١) الوقائع المصرية – ١٩/١٢/١٩١٤ .

لم تجد جريدته « الشعب » ولم يجد رئيس تحريرها امين الرافعي حيلة تجاه هذه الهجمة الشرسة ، وتجاه ما هو متوقع من عنف وارهاب من جانب السلطة وما هو باد من ضعف الحركة الوطنية وضعف الحزب وتخاذل رجاله .. لم تجد حيلة ولا مخرجاً . سوى الانتحار على طريقة الهاري كاري .. فاعلنت انها ستحتجب عن الصدور في ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ « وكان هذا الاحتجاب اول احتجاج عملي على الحماية البريطانية » (١)

.. ثم بدأت المطارق تنهال على الحزب الوطني ..

« وتولت السلطة العسكرية حكم البلاد في خلال الحرب فكان اول عمل لها اضطهاد الحزب الوطني ومطاردة رجاله فضبطت اوراقه ودفاتره وسجلاته وشتتت شمل اعضائه او الذين اشتبهت انهم من اعضائه او انصاره ، واعتقلت الكثيرين منهم ووزعتهم على سجن الاستئناف بالقاهرة وسجن الحدره بالاسكندرية ، والمعتقلات التي أنشأتها لهم خصيصاً في درب الجماميز وطره والجيزه وسيدي بشر ، ونفت بعضهم إلى مالطة واوربا ... وقد لبثوا في المعتقلات أو في المنفى مدداً طويلة ، ومنهم من لبث في السجن او المنفى إلى ما بعد الهدنة في ١٩١٨ ، اما من افرج عنهم فقد قيدت حريتهم ووضعوا تحت المراقبة » (٢)

---

(١) عبد الرحمن الرافعي — محمد فريد — ص ١٤٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي — المرجع السابق — ص ٣٥ .

ويصف كاتب آخر حالة مصر في هذه الايام فيقـول « كان المصريون يشاهدون اعمال المحتلين وما اشاعوا مـن ازهاب ، وما قاوموا به من عسف وتنكيل وتقييد للحريات وتكميم للافواه دون ان يرتفع صوت واحد بالاعتراض او الاحتجاج ، ولم يجرؤ واحد من اهل الرأي على الكلام ، وقد اعتقل الانجليز كل من اشتبهوا في امره او ظنوا انه يعارض سياستهم ولم يفكر اعضاء الجمعية التشريعية (وكان سعد زغلول وكيلها) في الاجتماع من تلقاء انفسهم وكان القانون النظامي يسمح لهم بذلك اذا لم يدعوا إلى الاجتماع في الموعد المحدد للدوره . ولم يفكروا في عقد اجتماع في منزل احدهم للتشاور في الامر . وكانوا في مقدمة المهنئين للسلطان الراضين عـن الاوضاع الحديثة » [1]

.. وامتد الارهاب ، وانحسرت الموجة الصاعدة للحركة الوطنية ، ، سجن من سجن وهاجر من هاجر وتراجع مـن تراجع .. وعادت مصر تتنفس بصعوبة وتختزن غضبها وثورتها لايام مقبله وان بدت للعيان وكأنها عادت للنوم .. او عادت للاستسلام .

والشعر الذي كان على زمن مصطفى وفريد سلاحاً في يد القوى الوطنية ضد المحتلين يلهب المشاعر ويحثها على الاقدام

---

(١) محمد سيد كيلاني – السلطان حسين كامل ، فترة مظلمة في تاريخ مصر – (١٩٦٣) دار القومية العربية للطباعة ص ١٠٥ .

أصبح في اكثر قصائده .. وفي هذا المناخ المظلم سلاحاً مضاداً يسبح بحمد الاحتلال .. ويحث على الخضوع له ..

وحتى حافظ ابراهيم الذي تغنت مصر طويلاً باشعاره الوطنية كتب قصيدة يهنىء فيها السلطان حسين كامل ويحثه على موالاة الانجليز .

ووال القوم انهموا كرام
ميامين النقيبه أين حلوا
لهم ملك على التاميز اضحت
ذراه على المعاقل تستهل
فان صادقتهم صدقوك ودا
وليس لهم ان فتشت مثل
فماددهم حبال الود وانهض
بنا فقيادنا للخير سهل (1)

واحمد نسيم الشاعر الذي امتدح فريد في اكثر من قصيدة وحض شعب مصر على الالتفاف حوله .. يكتب قصيدة يمتدح فيها الانجليز بطريقة تجرح مشاعر أي مصري ..

يا مصر حسبك هجعة بأمان
ووقاك ربك طارىء الحدثان
حرستك عين معاشر قد أشربوا
حب الشعوب برأفة وحنان

(1) المرجع السابق ص ١٠٥ .

يا أمة التاميز فضلك شائع

كالشمس مشرقة على الاكوان

عدل يسير مشرقا ومغربا

مثل النسيم سرى بكل مكان

بل هو يعتذر للاحتلال عن سوء الظن به .. فيمضي قائلاً

كنا نظن بكم ظنوناً لم تشد

الا على واه من البنيان

فتجلى مقصدكم لنا

كالضوء لم يحتج إلى برهان (١)

اما ولي الدين يكن فيكتب قصيدة مديح للملك جورج الخامس .. يشكره فيها على اعلان الحماية على مصر

يا أيها الملك العظيم سلام

هتفت ببيعتها لك الاقوام

مصر الوفية لا تزال وفية

وكما عهدت النيل والاهرام

نالت حمايتك التي اعترت بها

امثالها واستمكن الاسلام

اليوم تحسد عزها جاراتها

ويود ما نالت اخوها الشام (٢)

---

(١) المؤيد ١٩١٤/١١/٩ .

(٢) المقطم ١٩١٤/١٢/١٨ .

... كان التملق والرياء هو المنطق السائد .. ومصر تتلفت في دهشة بحثاً عن رجالها الشجعان فلا تسمعهم الا من خلف جدران السجون او من المنفى البعيد ..

ويفرض الارهاب ظله .. يمشي بسيفه في طول مصر وعرضها يكمم الافواه ، يسكت كل معارضة ولا يبقى سوى النفاق .

.. وعندما يحاول شاب من المنصوره اسمه محمد خليل ان يغتال السلطان حسين كامل احتجاجاً على خضوعه للاحتلال .. وقبوله للحمايه ، يذهب اعضاء الجمعية التشريعية لتهنئة السلطان بنجاته وقد تقدمهم سعد زغلول وهتف زغلول بحياة السلطان ثلاثا فردد الاعضاء الهتاف (١)

...وفي مناخ كهذا ماذا تنتظر من بقايا الحزب الوطني .. المطاردون والمضطهدون المهددون بالسجن والنفي ، والتائهون بلا زعامة ..

* * *

ويبقى بعد ذلك ان نورد عدداً من الآراء المختلفة حول اسباب التدهور الذي اصاب نشاط الحزب الوطني في هذه الآونه ..

يقول فاتيكيوتس « لقد كان من بقي من اعضاء الحزب الوطني

(١) محمد سيد كيلاني — المرجع السابق ص ١٠٨ .

في مصر يفتقدون قيادة حقيقية لهم ، فلم يجدوا سوى القيام باعمال انفعالية واثاريه في صفوف الطلاب وبعض سكان المدن ومن ثم فان الحزب الوطني قد افلت من يديه زمام قيادة الحركة الوطنية . ولم يعد قادراً على النهوض بها نحو الاستقلال » (١)

اما صلاح عبد الصبور فيقدم تحليلاً من زاوية اخرى ويقول « لم يكن وراء الحزب الوطني عند تشكيله مثل ما كان وراء حزب الامه من المثقفين ذوي النزعة العصرية بل لعله استهوى كتاب النزعه العثمانيه مثل « عبد العزيز جاويش » وغيره ... وواجه الحزب ظروفاً شاقه ، اذ تحالفت عليه قوى الاحتلال والسراي حتى استطاعت ان تخرج فريد من مصر ، وحتى استطاعت ان تصوره حزباً حريصاً على تفتيت وحدة الامة ، او خالقاً لمناخ مساعد عليها على اقل تقدير ، وبخاصة بعد ان اصبح عبد العزيز جاويش هو أشيع كتابه ذكرا » (٢)

ويقول بهذا الرأي أيضاً جمال احمد . الذي يضيف « انه وبرغم ان الحزب الوطني قد تحلل في عام ١٩١٤ ، وتبعثرت قواه — الا ان مصطفى كامل قد ظل ماثلاً في اذهان المصريين كزعيم وطني وكصورة للأمل في المستقبل » (٣)

---

(١) J. Vatikiotis — Ibid — p.p. 251.

(٢) صلاح عبد الصبور — قصة الضمير المصري الحديث — كتاب الاذاعة والتليفزيون (١٩٧٢) ص ١١١ .

(٣) J.M. Ahmed — The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism — Oxford (1960) — p.p. 79.

ويردد جاكوب لاندو نفس السبب ويضيف اليه اسباباً اخرى فيقول :

« وليس من السهل تحديد السبب في انحدار الحزب الوطني فهناك مجموعه من العوامل ربما تكون قد قامت بدور في هذا الانحدار .. كالصدمه التي تلقاها الحزب بالانشقاق بين الاقباط والمسلمين ، او تباعد الذين يؤيدون الحزب بعد تطرف صحافته او ربما كانت الشبهات التي القيت على جاويش وفريد في تعاونهما مع الباب العالي والتي اصابت منهم مقتلا ، وأثارت ضدهم غضب الخديوي والاوربيون الذين كانوا يعيشون في مصر وبالطبع الاحتلال الانجليزي .. اما اهم الاسباب واقواها فهو غياب رئيس الحزب الكفء بعد موت مصطفى كامل وهو اول مصيبه اصابت الحزب ، ثم كانت الخسارة الثانية بنفي محمد فريد بطريقة فظة في عام ١٩١١ ، والسبب الأخير هو اقرب الاسباب إلى المنطق ففي اكثر من مرة خلال الثمانينات كان بقاء او غياب الانسان الكفء في الشرق يقرر النجاح او الفشل في الحياة السياسية » (١)

لكن لاندو يعود فيلح على السبب الاول .. ويركز عليه بصورة قد تبدو مبالغاً فيها فيقول « وقد كان امراً عجيباً ... من وجهة النظر العلمية ان ينتهي مثل هذا الحزب وقد كان اكثر الاحزاب المصرية تنظيماً ، بلجنته المركزية وفروعه المنتشرة

(١) لاندو – المرجع السابق .

في جميع انحاء القطر ونظامه الدعائي الممتاز ليفشل بهذا الشكل البائس في كل ما تناوله من امور بعد الحرب العالمية الاولى . ولا يمكن التصور ان هذا الفشل يعود إلى اسباب شخصية فقط ، فقد تلقى الحزب ضربته الاولى بالمكيدة المدبرة التي اوقعت الشقاق بين الاقباط والمسلمين داخله ، ثم ظلت تنخر عظامه حتى عام ١٩١٨ » (١)

اما د . علي الدين هلال فيقول :

« فمنذ عام ١٩١٤ اصبح الحزب واقعياً بدون رئيس ، واتبعت السلطات الانجليزية سياسة اضطهاد وقمع تجاه قياداته الامر الذي ادى بعدد منهم إلى الاستقالة من الحزب او الابتعاد عن النشاط السياسي مثل عثمان غالب ومحمود فهمي حسين وحسن خيري وعلي المنزلاوي وآخرون ، وتدهورت اوضاعه الماليه حتى ان امتعة نادي الحزب بيعت بالمـــزاد العلني وفاء للديون المطلوبة عن ايجار المبنى ، كذلك فان فترة الحرب العالمية الاولى واعلان حالة الطوارئ كانت فاصلاً حجب الحزب عن الرأي العام. واخيراً تغيرت الظروف الدولية التي نشأت.. ففرنسا اصبحت حليفة لبريطانيا والدولة العلية هزمت في الحرب ونتيجة لهذا كله تضاءل نفوذ الحزب ليحل محله الوفد » (٢)

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) د . علي الدين هلال – السياسة والحكم في مصر ، العهد البرلماني ١٩٢٣ – ١٩٥٢ مكتبة نهضة الشرق (١٩٧٧) ص ٨٣ .

لكن الغريب هوان احداً من هؤلاء جميعاً لم يلمس الجرح الحقيقي ، وهو التركيب الطبقي لقيادة الحزب ، وتكونها اساساً من بعض اعيان الريف او الشرائح العليا من الطبقة الوسطى في المدينه .. وهي فئات اجتماعية عاجزة عن الصمود .. عاجزة عن الاعتماد على الجماهير .. عاجزة عن فهم القدرات الكامنة في جموع الشعب .. تعتمد اساساً على اللعب على الحبال والمناورات السياسية التي غالباً ما تنتهي إلى الاحباط ..

كانت الطبقة عاجزة .. والقيادة التابعة عنها عاجزة اندفعت مع ارتفاع الموجة الوطنية فما ان تعرضت هذه الموجة للانحسار حتى ارتجفت وتراجعت .

* * *

لكننا نخطيء خطئاً فادحاً لو تصورنا ان ما سبق كان صياغة لشهادة وفاة الحزب .. فالحزب قد تبعثر . نعم ! ضعف ،نعم ! تهالك بعض قادته . نعم ! فقد قوة اندفاعه وقوة الفعل فيه . نعم !

لكنه ظل وبرغم كل شيء كامناً في إعماق وجدان مصر تهز سيرته ونضالاته مشاعرها وتستحث المصريين على الافتداء .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩ وقام الوفد لم يكن من الممكن تصور « وفداً مصرياً » بدون ممثلين للحزب الوطني هما مصطفى النحاس وحافظ عفيفي .

وفي أوربا كانت « الجمعيات المصرية » المعبرة عن نفوذ الحزب الوطني ملىء السمع والبصر . وقد تعاونت مع الوفد كثيراً وناوءته كثيراً عندما حاول التهادن ..

وكان هناك فريد ..

مريضاً .. منهكاً .. فقيراً كحزبه ؛ لكنه صامد . أبي ، شجاع كحزبه ايضاً .

لكن الوفد يتفوق .. يكتسح بفضل زعامة سعد زغلول كل ما عداه ويكتسب شعبية طاغية تتضاءل امامها ايضاً تكوينات سياسية اخرى مهما كان تاريخها او تراثها ومهما كانت مبادؤها ..

ويحاول لاندو ان يفسر لنا هذه الظاهرة فيقول « لم يكن هناك فارق ايديولوجي كبير بين الوفد والحزب الوطني .. اما السباب تفوق الوفد بين الجماهير وتضاؤل شعبية الحزب الوطني فتعود إلى الاسباب التاليه .

١ — ان سعد زغلول استطاع ان يقنع المصريين بعدم جدوى العناد في موضوع « لا مفاوضة الا بعد الجلاء الذي كان الحزب الوطني يتمسك به طالما ان بريطانيا اقوى من مصر .

٢ — بينما كان الحزب الوطني يعتمد على الانتلجنسيا المثقفة وحدها في القاهرة والاسكندرية فقط انتشر الوفد في

الارياف يقدم نفسه لجماهير الفلاحين حتى اصبحت له لجنة نشطة في كل قرية صغيرة في مصر .. وكان الفلاحون انفسهم قد اصبحوا الان على درجة معقولة من الوعي السياسي يمكن ان يكون بها الوفد قاعدة له

٣ ـ كان زغلول نفسه من اهم اسباب تفوق الوفـــد في الوقت الذي يفتقر فيه الحزب الوطني إلى الشخصية الكبيرة الكفء بعد موت مصطفى كامل ثم نفي فريد ففي الشرق يقرر الرجال الاكفاء مسيرة التاريخ .

وفي التاريخ الحديث يعطي سعد زغلول اكبر الدلائل على ذلك فمع ان سعد زغلول لم يقدم إلى المصريين الا البرنامج الذي كان قد وضعه الحزب الوطني . فان الوفد هو الذي قاد مصر لعدد من السنين بعد ذلك » (١)

.. ولقد نختلف كثيراً حول الاسباب .. اما النتائج فهي اسطع وأوضح من ان يختلف عليها احد .

---

(١) لاندو ــ المرجع السابق ــ ص ١٣٦ .

- ٣ -

ضِدّ الثّورَة

.. وعندما تكون الحركة الوطنية ضعيفة ، ومقبلة لتوها من رحم ثورة مجهضة ومهزومة . وعندما تكون قيادتها من طبقة عاجزة اقتصادياً ، متخلفة اجتماعياً ، تخشى من حركة الجماهير او لا تتصورها فان الطموح الخارجي يكون هو المسلك المعتمد والاقرب إلى التصور .

ولهذا لم يكن مصادفة ان اكد مصطفى كامل اكثر من مرة رفضه لفكرة الثورة .. وكرر فريد نفس الشيء . وقد حرص مصطفى منذ الايام الاولى لحركته ان ينفي عنها شبهه اي نزوع نحو الثورة فهو يؤكد في نوفمبر ١٨٩٦ في حديث له مع مراسل نيويورك هيرالد « ان الحزب الوطني في مصر هو عبارة عن الامة بأسرها ، فرغائبه هي رغائبها ، واهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير احداث اي اضطراب او اي أمر من شأنه تكدير الامن العام . ولهذا قمنا نلفت انظار اوربا بالقلم

واللسان ، ولسنا بغير القلم واللسان نريد ان نخاطب اوربـا ونستفزها للنظر في مصلحة بلادنا » .

وعندما نشرت « الليبرتيه » الفرنسية مقالاً يتهمه بالتحريض على الثورة ، حرص مصطفى كامل على ان يوجه لرئيس التحرير خطاباً يقول فيه « واني ارجو ان تسمح لي بأن اصرح جهاراً بأننا لم نفكر قط في الطرق الثورية للوصول إلى تحرير وطننا العزيز [1] » .

ومرة ثالثة يؤكد مصطفى على صفحات جريدة نمساوية « ولما كانت الامة المصرية متألمه ولها حقوق الخلاص من النير الانجليزي فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين : سبيل الثورة والسبيل السلمي ..

فأما سبيل الثورة ، فنحن لا نريده لاننا قبـل كل شيء قوم مشهورون بالدعه وحب السكينه ونبغض المذابح والجرائم ، ومن جهة اخرى فان لاوربا عندنا مصالح تضربها الثوره » [2]

والكلام ليس موجه لاوربا وحدها ، بـل لشعب مصر أيضاً .. فمصطفى يعلم المصريين « ان الغيره التي تستعمل في غير موضعها تكون دواماً أضر من البلاده والخمول فلذا أناديكم مناداة محب لبلاده ان تنفوا باعتدالكم وسكونكم تهمة مـن

---

(١) علي فهمي كامل – المرجع السابق . ص ٣٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٣١ .

يرمونكم بحب الهياج والاضطراب . ومثل مصر مثل مريض قارب الشفاء ينصح له الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء ، لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل اشد من ويلها الاول فلنحترس جميعاً معشر المصريين من التعرض إلى ما ورائه تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم » . (١)

وهو عندما يناشد المصريين العمل ضد الاحتلال يحرص على ان يؤكد « لست اقصد بهذا الكلام ان اسألكم باسم الوطن اعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد ، كلا ثم كلا . ان أقل الناس ادراكاً لمصلحة مصر يعلم علم اليقين انها منافيه لكل ثورة وكل هيجان ... ان مصلحة الوطن المصري مخالفه لكل ثورة ولكل هيجان » (٢)

لكن مصطفى لا ينسى في بعض الاحيان ان يهدد اوربا اذا لم تساعد مصر ... فهو يقول محذراً في حديثه لجريدة « لاكوريري » الايطالية في ١٥ مارس ١٨٩٨ « اننا لم نعول إلى الآن على الدم في تحرير بلادنا بل عولنا وسنعول ما دام في الوجود انصاف على القلم واللسان » لكن ماذا لو تجاهلت اوربا دعوته ؟

يقول مصطفى « هناك تخرج الامة المصرية للعالم عملاً من اعمال الامم المستميته في التمسك بحقوقها . هناك تندم اوروبا

---

(١) المرجع السابق — ص ٢٨٧ وأيضاً أحمد رشاد — المرجع السابق ص ٨٨
(٢) أحمد رشاد — المرجع السابق ص ٥ — ١١ .

وتقول ليتني سمعت ، ليتني فعلت ... هناك تكتب الدماء البريئة انا لم نظلم انفسنا ولكن الانسانية ظلمتنا » (١)

لكن هذا التهديد الواهن يختفي تحت وطأة الالحاح المستمر برفض فكرة الثورة والاصرار على ادانتها . وفي ٧ يونيو ١٩٠٤ القى مصطفى كامل خطبة في مسرح زيزينيا بالاسكندرية قال فيها « ليس غرض المواطنين ان يسيلوا الدماء غزيرة في ثورة تعم البلاد ، ولكنهم يهدفون إلى إرشاد الشعب إلى حفظ كرامته » (٢) .

وفي افتتاحية العدد الاول من « « ليتندار اجيبسيان » كتب مصطفى كامل تحت عنوان « من اجل مصر » « اننا بفضل نور العلم والمعرفة والحق والطرق الشرعية سنحقق امانينا القومية ، لسنا ثوريين ولا مبغضين للاوربيين . فليس للبغضاء مكان في قلوبنا . انما نزدري فقط الخونة » (٣)

بل ان مصطفى كامل يرفض يداً يمدها اليه عديد من ضباط الجيش وجهوا اليه عريضه موقعه بامضاءاتهم يقولون فيها « ان الذين يخاطبونك يجدون انفسهم امام وطنيتك النادرة وتفانيك في حب مصر المقدسة صغاراً ..

.. اننا نشكرك ايها السيد المبجل .. واعلم ان ارواحنا طوع

(١) علي فهمي كامل – المرجع السابق ص ٣٨٥ .
(٢) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ١٨٥ .
(٣) ليتندار اجيبسيان – ٣-٣ – ١٩٠٧ .

اشارتك في خدمة بلادنا العزيزة .

لكن مصطفى الذي لم يزل يعاني من كابوس تدخل الضباط العرابيين في العمل الوطني ولم تزل نفسه مليئه بالانتقادات المريره ضد الثورة العرابية يرد على الضباط رداً قاسياً « من الحكمة لا نمكن العدو من رقابنا .. واني لا أود أن يدخل الضباط في حركتنا السياسيه دخولاً ظاهراً لان هذا يضر بالمسألة المصرية ضرراً بليغاً حيث يجد الاحتلال مسوغاً لاختلاق التهم الثورية بمصر »[(١)]

وربما كان فريد مختلفاً قليلاً عن مصطفى .. لكنه ظل طوال الفترة الاولى من زعامته حريصاً على ان ينفي عن نفسه وعن حزبه « تهمة » العمل الثوري .

.. وهكذا كان الحزب الوطني في مأزق حقيقي .

— فهو ضد الثورة .

— وهو يرفع شعار « لا مفاوضة الا بعد الجلاء » .

كيف اذن يتحقق الجلاء .. ؟

تلك هي المشكلة المعقدة التي تعثرت امامها استراتيجية العمل الوطني للحزب والتي ادت به إلى التأرجح بين القوى الخارجيه محاولاً ان يتخذ منها سنداً او عوناً .

---

(١) علي فهمي كامل — المرجع السابق ص ١٥٥ .

لكننا مع ذلك يتعين علينا ان نشير إلى ان فريد قد غير من خطته .

فسوف نرى ان الحزب تحت زعامته قد غير من خطة « العمل السلمي » البحت وابتدأ سياسة استخدام العنف الفردي المسلح ضد الاحتلال والخونة ..

وعندما استنفذ فريد كل محاولات اللعب على الحبال الاجنبية ، عندما فقد الثقة في فرنسا ثم في تركيا ثم في المانيا ... لم يجد بداً من التفكير في الثورة ..

وكان ذلك بعد اعلان الحماية البريطانية على مصر ..

وفي ٤ مايو ١٩١٤ يكتب فريد في مذكراته الخطية ان اثنين من شباب الحزب الوطني سألاه « وماذا سنفعل لو انتصرت بريطانيا في الحرب ؟ فأجاب « نجتهد حينذاك في تجهيز الثورة في مصر » .

والحقيقه ان فريد كان قد حاول الحصول على بعض الاسلحه من الالمان فهو يقول في مذكراته عن يوم ٣ مايو ١٩١٤ « قابلنا مسيو زميتس سكرتير عام وزارة الخارجية الالمانية وتكلمنا بخصوص ارسال اسلحة لمصر » (١)

وقد حاول فريد ان يتخذ خطوات عملية في الاعداد للثورة المسلحة فارسل احد خلصائه (عبد العزيز عمران) ليبحث هذه

(١) فتحي رضوان – المرجع السابق ص ٢٧٨.

الامكانية ويكتب فريد عن هذه الرحلة في مذكراته قائلاً « وصل عبد العزيز عمران وملخص اخباره ان الحالة الروحية في مصر جيده جداً ، وان اخواننا مشتغلون بتنظيم اعمالهم استعداداً للثورة عند سنوح الفرصة ولكنهم ينتظرون منا أن نرسل لهم السلاح والذخائر ، وهم يجهزون اللازم لادخالها سراً وحفظها في اماكن امينة لحين توزيعها . وقد اتفق هو مع الاخوان هناك على كيفية التخاطب بجوابات مفتوحة ، ولكن بعبارات متفق عليها . وسيسافر قريباً إلى برلين للسعي في ارسال الأسلحة والذخائر . »[1]

لكن لا الألمان قدموا سلاحاً .. ولا الحزب كان قادراً على الثورة . وهكذا فان اللجوء إلى الثورة يكون نوعاً من فقدان الصبر وفقدان الحيلة .. وليس تمسكاً بمنهج صحيح .

فعندما ارتفعت موجة العمل الوطني وكان الحزب ملىء السمع والبصر كانت الهجمات تكال لفكرة الثورة .. وكان هذا غريباً ، لكن الاغرب هو ان تكون « الثورة » سبيل من ضاقت به السبل ، وحيله من لم يجد مخرجاً آخر . الاغرب ان نحذر الجماهير من الثورة عندما تكون مستعده لها . ثم نستجديها منها عندما تكون عاجزة وغير قادرة على أية حركة .

* * *

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٣٠٤ .

وربما كان احد الاسباب التي وقفت بالحزب الوطني ضد الثورة .. هو إحساسه المستمر بوطأة الهزيمة التي حاقت بالثورة العرابية .

ولقد ترسخ في أذهان رجال الوطن ان نكبة الاحتلال هي مجرد نتيجة « لجريمة » اخرى هي « الثورة العرابية » !

وكم كان غريباً ان يكون صعود الحركة الوطنية في نهايات القرن التاسع عشر في تضاد تام مع انتفاضة الشعب في ظلال الثورة الوطنية الاولى .. ثورة عرابي .

وكم كان غريباً ان يلتقي مصطفى بعبد الله النديم احد ابطال الثورة العرابية وان يتتلمذ على يديه ، وان يتلقن منه الطموح للنضال من اجل مصر ، ثم اذا به ينقلب في اول خطاه الوطنية على الثورة العرابية ويدين قادتها ومنهاجها ..

ربما كان السبب ان قادة الحزب الوطني بدأوا خطواتهم الاولى في رحاب الخديوي ، وربما لانهم استشعروا ان دخول الانجليز إلى مصر كان بسبب العرابيين . وربما كان بسبب العلاقات الحميمة بين الحزب الوطني – في أيامه الاولى ايضاً – بالعثمانيين ، وكان العثمانيون يحقدون على محاولة الثوار العرابيين الاستقلال بمصر عن الخلافة ..

وربما كانت هذه الاسباب مجتمعه هي التي شكلت ذلك الموقف الغريب والغير مفهوم الذي اتخذه الحزب الوطني من الثورة العرابية .

فمصطفى كامل لا يكتفي بادانة عرابي ، بل هو ويـا للغرابة يدافع عن الخديوي توفيق ويبرر خيانته فيقول في كتابه « المسأله الشرقية » ان توفيق « كان يود لا محاله استقامة الاحوال بغير تداخل اجنبي ولكنه افهم بعد ضرب الاسكندرية ان العرابيين يريدون خلعه او الفتك به .. فلما لم يجد نصيراً من قومه ينصره ضد العرابيين القى بنفسه بين ايدي الانجليز محافظة على ملكه وعلى حياته » [1]

وفي الوقت الذي يهاجم مصطفى كامل الثورة العرابية فانه لا يخفي انه يهاجمها لحساب « الاريكة الخديوية » . بل هو يدعو المصريين إلى « ان يدافعوا عن اريكه الخديو ، ولو ماتوا عن آخرهم ففي سلامة الخديوية الجليلة سلامة الوطن العزيز . وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها . وليس الحزب الوطني في مصر الآن ذا أميال مناقضة لاميال العزيز . بل الرئيس الحقيقي لهذا الحزب ــ أي للامة كلها ــ هو سمو الخديو عباس حلمي باشا الثاني ، الذي ايقظ العواطف الوطنية في بلاد مصر » [2]

وعندما سُمح لعرابي بالعودة إلى مصر من منفاه البعيد . يفاجأ الجميع بمصطفى كامل وهو يدعي ان الانجليز قد « اتوا بعرابي ليهددوا به الخديوي » [3]

---

(١) مصطفى كامل ــ المسألة الشرقية ــ مطبعة الآداب بمصر (١٨٩٨) ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) اللواء ١٩٠١/٥/٣٠ .

.. عندما يعود عرابي ، كهلاً ، يوشك ان يفقد بصره ، فقيراً ، محتاجاً إلى أي نصير يستقبله مصطفى كامل بمقال في اللواء بعنوان « عرابي » يقول فيه « ما عار الاحتلال ، وعار الجهالة والتأخر ، وعار الفقر بشيء يذكر اذا قورن بالعار الذي يحمله عرابي ، ويقرأه الناس على وجهه أينما سار وأينما حل . وأي عار اكبر من عار رجل تهور جباناً واندفع جاهلاً ، وساق امته إلى مهواة الموت الادبي ، والاستعباد الثقيل ، ثم فر هارباً من ميادين القتال .. فاحمل عارك ايها القادم المشئوم ، فهو نيشانك وسر به في شوارع المدائن ومسالك القرى ليقرأ فيه الناشئون عبرة العبر ، ويردد امثال الجهالة والغباوة والخيانة » [1]

وفريد هو أيضاً يشارك في الحملة ضد الثورة العرابية فهو يتحدث في مقدمته لكتاب علي فهمي كامل عن حزن المصريين « لما جرته الثورة العرابية التي كانت بلاءً محضاً وشراً صرفاً على البلاد » [2]

واحد شباب الحزب الوطني يقابل عرابي في الطريق فيبصق في وجهه ويتهمه بالخيانة ويحبس عرابي نفسه في بيته حتى يموت[3]

لكن عرابي المقاتل الصلب لا يترك خصومه دون رد

---

(١) اللواء ١٩٠١/٩/٢٨ .

(٢) علي فهمي كامل ، المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع د. رفعت السعيد — الأساس الاجتماعي للثورة العرابية — المرجع السابق .

فيورد في مذكراته فصلاً كاملاً بعنوان « الرد على الجرائد المأجورة » قال فيه « لم يرق في نظر خصومنا الجهلاء رجوعنا إلى وطننا العزيز فأوعزوا إلى الجرائد المأجورة وفي مقدمتها جريدة اللواء فوجهت الينا سهام جهلها وأماطت عنا لثام الوطنية وغمطت تأدية واجباتنا في الدفاع عن الوطن ، وكأننا لم نقم لتحرير البلاد من ربقة الاستعباد ولم نخاطر بحياتنا واملاكنا في سبيل نيل الحرية والمساواة » .

وثمة جزء من هذا الفصل بعنوان « عرابي والشعراء » وهو مجموعة من المعارضات الشعرية لقصائد شوقي — شاعر المعية الخديوية — التي نشرتها « اللواء » هجوماً على عرابي ..

واذ تنشر اللواء قصيدة شوقي التي جعل مطلعها

صغار في الذهاب وفي الاياب
اهذا كل شأنك يا عرابي

يعارضها الشاعر (الذي يرجح انه عرابي نفسه) قائلاً

نفاق في الحضور وفي الغياب
وهذا شأن اولاد الكلاب
عفت افكار مثلك يا جهول
ويعفو الله عن وطن مصاب
فعش في مصر ذا جهل ولؤم
ذليل النفس معتل الشباب

بل ان عرابي يلجأ إلى نفس الاسلوب غير الموضوعي فيذكر مصطفى بأن أباه كان مجرد ضابط صغير وقت ان كان هو وزيراً للحربية ..

فمن ذا أورث الوغد اللواء
ففاخرنا واتبعنا العداء
وكان ابوه يلبسنا الحذاء
ويسجد تحت رايتنا رغاما (١)

* * *

وكان الموقفان مترابطين ومتفقين مع بعضهما في خط منسق فالذي يرفض الثورة ، ويعتبرها « جريمة » و « ضرراً » بالقضية الوطنية لا بد له وان يدين الثورة التي قامت بالفعل .

والذي يرفض عرابي ويدينه لا بد له ان يقبل الخديوي توفيق .

والذي يتحالف مع السلطان العثماني على اساس قبول مبدأ انتماء مصر وتبعيتها للخلافة العثمانية لا بد له الا يتسامح تجاه ثورة ارادت ان تنتزع مصر من براثن الخلافة .

وتتغير مواقف كثيرة ..

---

(١) آفاق عربية – السنة الثانية . العدد ٧ . آذار ١٩٧٧ – صلاح عيسى – مقال : الصراع بين مصطفى كامل وأحمد عرابي .

فالحزب ينسحب من معسكر الخديوي وينتقده ثم يهاجمه ويعلن ضده العداء السافر وهو يستريب في العثمانيين ثم يهاجمهم ايضاً ..

موقف واحد ظل على ثباته هو الموقف من الثورة العرابية .

أليس هذا غريباً ؟

* * *

ويكون منطقياً تماماً بالنسبة لحزب يرفض الثورة كفكرة وكمنطلق ، ويرفض ايضاً « المفاوضة » مع الاحتلال الا بعد الجلاء .. ولا يجد من الحركة الشعبية صعوداً مغرياً بالاعتماد عليها ..

ان يبحث عن « وسائط » اخرى للحركة والفعل .

فيضع نفسه بين نيران ثلاث: الخديوي. العثمانيون . أوربا، محاولاً ان يكسب شيئاً من المناورة بينها أو المناورة بها .

فماذا كانت النتيجة ؟

* * *

لكننا وقبل ان نطوي هذه الصفحة نريد ان نبرىء فريد من هذه المسئولية فما حيلة الزعيم الذي تلقى ميراثاً من حزب تهيمن عليه قيادة معتدلة وجماهير لم تزل بعد غير مستعدة ، ولقد حاول فريد ان يحل هذه المعادلة الصعبة . حاول ان يتجه

بالحزب نحو الفعل الثوري فاذا بزملائه في القيادة يتساقطون هلعاً وخوفاً واذا بالقاعدة الحزبية ليست في مستوى هذا « الفعل الثوري » ولا في مستوى التصدي لهلع القيادة .. والطموح نحو قيادة بديلة واساليب بديلة ..

انها مأساة طبقة وليست اخطاء زعيم .

فقد اردنا ان نبرىء الرجل ونحن مقبلون معه على الرحلة الصعبة التي اضطر لاجتيازها مناوراً بين نيران ثلاث ..

– ٤ –

بين نيران ثلاث

وهكذا تعود بنا الدراسة مرة اخرى إلى قصة العلاقة بين الحزب الوطني والخديوي ..

وقد مرت هذه العلاقة باطوار عدة ... من محاولات الاستخدام والاحتواء المتبادلـة ، ومن الصداقة الوطيدة إلى العداء الحاسم ...

لكن لماذا لا نحاول ان نمسك بالخيط من بدايته ... ؟

يقول لطفي السيد في مذكراته « اتممت الدراسة عام ١٨٩٤ وكنا نفكر في حالة مصر وما تعانيه من الاحتلال البريطاني . وفي ذلك العام أنشأنا جمعية سرية غرضها تحرير مصر ... وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف الجمعية فالتقيت بمصطفى كامل فقال لي : ان الخديوي عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية واغراضها ، واظن انه لا تنافي بينهما وبين ان نشترك في تأليف حزب وطني تحت رياسة الخديوي . فأجبته لا مانع

عندي من ذلك . وابلغ مصطفى الخديوي هذا القبول واستأذن لي في مقابلة سموه . وذهبت اليه فتحدث عن اغراض الحزب الذي يريد تأليفه . وطلب مني ان اسافر إلى سويسرا كي اكتسب الجنسية السويسرية ثم اعود إلى مصر لاحرر بجريدة تقاوم الاحتلال . والسبب في اختيار سويسرا دون اية دولة ، ان التجنس بجنسيتها قريب المثال لا يكلف الراغب فيها الا اقامة سنة واحدة بها . وكان الخديوي يظن وقتئذ ان فرنسا تستطيع ان تؤلب الدول على انجلترا لتجلو عن مصر . والذي أطمعه في ذلك زيارة المسيو دي لونكل النائب الفرنسي لسموه ووعده له بذلك . وبعدما خرجت من مقابلة الخديوي عباس اجتمعت انا ومصطفى كامل وبعض زملائنا في منزل محمد فريد وألفنا الحزب الوطني كجمعية سرية رئيسها الخديو واعضاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد وسعيد الشيمي ياور الخديوي ومحمد عثمان ولبيب محرم وأنا » (١)

ويؤكد مصطفى ذلك اذ يوجه رسالة إلى مدام جوليت آدم يخبرها فيها « ولنا حزب سري مخلص للغاية وهو على استعداد للتضحية بذاته في سبيل الوطن المقدس (٢) .... ونمضي مع الاحداث ...

---

(١) أحمد لطفي السيد – قصة حياتي – كما أملاها على الأستاذ طاهر الطناحي – مطبوعات الهلال (١٩٦٢) ص ٢١ .

(٢) رسائل مصرية فرنسية – ترجمة علي فهمي كامل – القاهرة (١٩٠٩) ص ٣٩ .

سافر مصطفى كامل إلى أوربا ليؤلبها ضد الاحتلال البريطاني ... وكان ذلك في ١٨٩٥ . . ومول الخديو الرحلة ... وكان مصطفى يراسل الخديو عن طريق عبد الرحيم احمد بك وكيل الادارة العربية بالمعية السنية .

وتحت ايدي الباحثين في تاريخ هذه العلاقه ثماني عشرة رسالة حررها مصطفى كامل للخديوي في الفتره من ٨ يونيو ١٨٩٥ إلى فبراير ١٨٩٦ ... نقدم نموذجاً منها ، لعله يوضح طبيعة العلاقة بينهما .

« باريس في ٢٧ يونيو ١٨٩٥

اخي ومواطني العزيز حفظه الله وأبقاه

... اني شرحت لكم الحال حقاً وصدقاً اذ ان مثلي لا يصح ان يكذب على مولاه أو يغير له اعتقاداً يعتقده ... ورضاء مولاي كما تعلمون منتهى رغبتي ، فاو أمرني أعز الله شأنه بأن أذبح خدمة لبلادي ولشخصه الجليل لما تأخرت ، فكيف بأوامر مثل هذه أتبعها بكل سرور وارتياح ...

.... وأكرر لكم اني لا أسأل سيدي الاعلى ومولاي شيئاً غير رضائه عني فاني لو علمت بأقل تغيير في ثقته بي ، ورضائه عني لاختفيت من على سطح الارض دون ان يعلم لي شأن . وتأخركم في المراسلة حملني على الظن بذلك ولولا انكم كتبتم لي هذه المرة لكانت ازدادت نفسي ضيقاً وعظم بلبالي وقلت

راحة بالي ، وحتى مع وصول خطابكم فلا زلت مشغولاً لان مولاي لم يأمر أمره ويظهر رأيه السامي في البروجرام الذي عرضته بواسطتكم على اعتابه الشريفة مما يجعلني في حيرة كالسائح الذي لا يعلم اين ترسي المركب .. فلذا ارجوكم التلطف والتعطف وسؤال كعبه آمالي ومجره مقاصدي كيف اخير ؟ وماذا يكون بروجرامي حتى اختاره وأسير بسلام ... واعرضوا كل ذلك على سيدي الأعلى أدامه الله وقبلوا لي اعتابه الشريفة الف الف مرة » (1) ويؤكد مصطفى كامل اكثر من مرة « ان الخديو هو رئيس الحزب الوطني لانه رئيس الامة والحزب الوطني هو الامة كلها . » (2)

لكننا نلاحظ ان فريد كان يتخذ موقفاً يختلف بعض الشيء عن موقف مصطفى ففي مذكراته الخطية عن (اوائل شهر يناير ١٨٩١ يتحدث عن زيارة الخديوي للصعيد فيقول « اني أجد في حسن مقابلة الخديو فائدتين مهمتين : اولهما رواج الاعمال قليلاً بالنسبة للأخذ والعطاء ... وثانيهما نسبة ما هم عليه الآن من رفاهية وراحة بالنسبة لما كانوا عليه من زمن اسماعيل باشا إلى سموه ووزرائه المصريين لا إلى الانكليز المحتلين لوطننا لاصلاحنا كما يدعون » (3) .

---

(1) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٢١٢ .
(2) مصطفى كامل – المسألة الشرقية ، القاهرة (١٩٠٩) ص ٢٧ .
(3) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٦٩ .

وهو يتحدث عن صدور امر عال بانشاء محكمة مخصوصة لمديرية الحدود فيقول في مذكراته عن يوم ٧ مارس ١٨٩١ « ولا يخفى ما في هذا التعديل من الاخلال بالقانون وما تم الا لمرضاة الانكليز ، ومن ضعف عزيمة الخديوي على مقاومتهم وملاينته لهم حرصاً على نفسه من ان يسعى الانكليز في عزله ، مع ان الواجب هو المحافظة على صالح الوطن ولو ادى ذلك إلى عزله ، فانه في هذه الحالة يجد من الأمة ظهيراً ومن دول أوربا نصيراً [١] .

وفي مذكراته اليوم التالي يتحدث فريد عن خلاف جديد بشأن طلب مستر سكوت المستشار القضائي البريطاني حضور جلسات مجلس النظار التي يكون بها مذكرات من الحقانية ..

« وكان رياض باشا ناظر النظار يرى ان ذلك مخل بشرف المجلس واستقلاله ، والظاهر ان الخديو معضد الانجليز في هذه المسألة ايضاً الأمر الذي يحزن له كل وطني حر النزعة ، وينفر منه الأهالي بعد أن أشرب قلبها حبه ، وعليه بتحسين خطته لكي لا يبغضه القريب والبعيد . » [٢]

كان هذا هو موقف فريد من الخديو توفيق .. لكنه غير موقفه قليلاً من عباس حلمي « فجميع الأهالي مستبشرون بهذا الخديو ويؤملون فيه عدم موافقة الانكليز على مطلوباتهم المجحفه

---

(١) المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢ .

بحقوق الامة كوالده المرحوم الذي عرف بضعف العزيمة مع حسن النية » [1]

هكذا كتب فريد في مذكراته في يناير ١٨٩٢ ..

ورويداً رويداً نجد ان فريد قد استدرج هو ايضاً إلى المديح المبالغ فيه ليس لعباس وحده وانما للاسرة العلويه كلها .. وصولاً حتى محمد علي الذي يصفه بانه « ممدن مصر وباعثها من رمسها ، ومعيد مجدها ، من له عليها الأيادي البيضاء طول الدهر الامير الجليل المرحوم محمد علي باشا مؤسس العائلة الكريمة الخديوية وثالث جد لخديوينا الحالي افتدينا عباس باشا حلمي الثاني » [2] وكان محمد فريد قد اصدر كتاباً في عام ١٨٩١ . بعنوان « البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية « ملأه مديحاً لمحمد علي واسرته .

وكان لا بد لعبارات كهذه عندما ترد في كتاب من تأليف محمد فريد ان تترك اثراً في تعزيز العلاقات بينه وبين الخديو .. وبالفعل يورد فريد في مذكراته عن يوم ٢٢ فبراير ١٨٩٤ . « وتشرفت بمقابلة الخديو وقدمت له نسخة من تأليفي الجديد بتاريخ الدولة العلنية العثمانية ، فقبلها مني بكل ارتياح واجلسني بحضرته واخذ يشجعني على التأليف فخرجت شاكراً » [3] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٢) محمد بك فريد – تاريخ الدولة العلية العثمانية – الطبعة الثالثة (١٩٧٧) – دار الجيل بيروت ص ١٩٢ .

(٣) رؤوف عباس – المرجع السابق – ص ١٩٦ .

لكننا ولكي ننصف الزعيمين مصطفى وفريد يتعين علينا ان نقرر انهما كانا في اقترابهما من الخديوي يستهدفان دفع عجلة العداء للاحتلال بأية صورة من الصور في مجتمع كان يعاني في هذه الفتره من مأساة الهزيمة العرابية والاحساس البالغ بالضعف وقلة الحيلة ازاء المحتلين .. وفيما يتعلق بمصطفى فان لاندو يقول « وقد أمضى مصطفى كامل وقتاً طويلاً في دراسة المسألة المصرية ، والدرس الاول الذي تعلمه مصطفى من فشل عرابي هو الا يسمح للاحتلال ان يستغل الخلافات بين القوى الوطنية وبين الخديو لصالحه لذلك فلم يقطع صلتـه بالخديوي عباس الثاني لفترة طويلة ».(١)

اما فريد فانه يسجل ذلك صراحة في مذكراته عن يوم ٣ فبراير ١٨٩٤ « ولقد اشاعت بعض الجرائد ان الخديو حرر رقيماً فيه تفصيلات حادثة الحدود ليرسله إلى جميع الدول بصفة احتجاج ضد الانكليز وليظهر للعالم المتمدن ان الانكليز عظموا الحادثة مع قلة اهميتها . . ويا ليته يقدم هذه المذكرة فتغتاظ انكلترا ويشتد الخلاف فتدخل المسألة في دور مهم وترسي سفينتنا المضطربة على ساحل ولو غير حسن لانه جاء في الامثال العامة (وقوع البلاء ولا انتظاره) » (٢)

وتكون حادثة فاشوره فيصلا ..

---

(١) لاندو — المرجع السابق ص ١١٩ .

(٢) رؤوف عباس ص ١٩٤ .

فان هؤلاء الذين حاولوا التمرد على الانجليز في غيبة احساسهم بامكانية تحرك الشعب خلفهم قد اعتمدوا أولاً وأخيراً على وقوف فرنسا ضد الاحتلال الانجليزي ...

فاذا ما رأوا أمام أعينهم فرنسا وهي تستسلم للانجليز في فاشورة ، استسلموا هم ايضاً .. احمد لطفي السيد وكل جماعات الاعيان اتخذوا وبصراحة خطة ملاينة الانجليز ومهادنتهم والخديوي هو ايضاً تهادن ، ورفع يده عن مساعدة الحركة الوطنية . بل وسافر إلى لندن لأول مرة في ٢ يونيو ١٩٠٢ . « لفرط يأسه من زوال الاحتلال » (١) .

.. ويقف مصطفى وفريد وحدهما .. الكل يستسلم الا هما ويكتب مصطفى لفريد « سأعمل كل ما في جهدي لخدمة البلاد وما علي الا الامتثال لارادة الخالق جل شأنه الذي كأنه أراد ان اكون الوحيد في خطتي . الفرد المطالب بالاستقلال » (٢)

وينتهي شهر العسل بين الزعيمين والخديوي ..

يروي فريد في مذكراته عن شهر اغسطس ١٩٠٤ كيف التقى هو ومصطفى مع الخديو ، وكيف ان مصطفى اخذ يلوم الخديو على موقفه من قضية زواج الشيخ علي يوسف من ابنة الشيخ السادات .. ويذكره بأن الرأي العام غاضب على هذا

---

(١) فتحي رضوان المرجع السابق ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق — ص ٦٤ .

الموقف فيرد الخديوي « رأي عام ايه يا شيخ ، هو فيه حاجة اسمها رأي عام أو أمة .. انا لو لبست برنيطة ومشيت في البلد ما حد يتكلم » .

لشد ما تغير الخديوي ، لكن مصطفى ما تغير لقد شدد النكير على الخديوي ولامه بحدة فغضب الخديوي قائلاً « انا ما أحبش تنصحني ، انا عارف الواجب علي » وقام زعلان وبقينا نحن وكان مصطفى في حالة هياج شديد يقول : لا بد من قطع علاقاتي مع هذا الرجل » [1] .

فالعلاقه ليست أبدية ... وما ان يحيد الخديوي عن الطريق حتى تنهال عليه مطارق الزعامة الوطنية .

لكن العلاقة تظل متأرجحة ، ومفتوحة لاحتمالات التحالف والتعاون من جديد ويروي فريد في مذكراته قصة عودة العلاقات بين مصطفى وفريد من ناحية والخديوي من ناحية أخرى بقوله « وفي خريف ١٩٠٦ توسط الدكتور صادق رمضان ومهد السبيل للمقابله مع الخديوي ، وفعلاً اجتمعنا انا ومصطفى كامل والدكتور صادق ولطيف سليم باشا وقابلنا الخديوي سراً في عربة .. وفي هذه الليلة اتفقنا على تأسيس الحزب الوطني والنادي وجرائد لاتندار الفرنسية والانكليزية . وكنا مختلفين في هل يكون الحزب سرياً او علنياً وكان رأي الخديوي أن يكون سرياً وبأن ينتخب اعضاء اللجنة

(١) محمد صبيح ص ٢٣٠ .

الادارية السرية من بين اعضاء النادي بعد الاختبار ، ولكن تغلبنا على جعله جهرياً ولا بأس من تشكيل لجنه سريه فيما بعد من العاملين المخلصين ليقرروا ما يرونه لازماً بينهم » .

ويمضي فريد قائلاً « بعد هذه المقابلة اجتمعنا جملة مرات الخديوي وأنا وصادق رمضان ومصطفى بجامع سيدي البتري بجنينة القبة .. وفي اثناء ذلك تأسست شركة لا تندار برأس مال قدره عشرون الف جنيه ودفعت انا منها خمسمائة ، وأوعز الخديو إلى الكثيرين من الاغنياء بالدفع فدفعوا مثل الامير جميل طوسون ومدحت باشا يكن وغيرهما مما اخبرنا عنه مصطفى عند وفاته ، ومصطفى اكتتب بألف جنيه ولكن لا ادري ان كان الخديو دفع مساعدة في هذا المشروع ام لا ، لانه رحمه الله كان يخفي عني كل ما يختص بالمساعدات الماليه التي كان يأخذها سواء كان من الخديو او من السلطان عبد الحميد . على انه اعترف بأخذ مساعدات كثيرة من الخديوي ولكنه لم يعترف مطلقاً بأخذ شيء من عبد الحميد »[1]

وهكذا وحتى النهاية ظلت العلاقة بين فريد والخديوي متأرجحة يحكمها امران اساسيان اولهما موقف الخديوي من الاحتلال وثانيهما ضعف الحركة الشعبيه المصرية وعدم قدرتها على التحرك دون مناوره بين القوى المناوئه . « وفي اخريات ١٩٠٦ ذهب محمد فريد إلى باريس ورأى مدام جولييت آدم

---

(١) المرجع السابق – ص ٢٣١ .

وأسر اليها بأن الانجليز ينوون عزل الخديو لتأييده مصطفى كامل في حملته عليهم اثناء حادثة دنشواي » [1]

وفي ١٩ ابريل ١٩٠٧ يكتب مصطفى كامل إلى جولييت آدم يزف اليها نبأ اعظم انتصار تحقق على يدي الحزب الوطني وهو سقوط كرومر باعتباره مسئولاً عن جريمة دنشواي ويقول « ان الحركة الوطنية آخذه في النمو هنا وسقوط اللورد كرومر يعد نصراً وطنياً واذا من الله علينا بقوة الكفاح فسنصل إلى مآربنا » .

لكن مصطفى يبدي مخاوفه من ان خليفة جورست سوف يحاول كسب الخديوي ضد الحركة الوطنية ، .فالانجليز وقد استشعروا قوة الحزب الوطني اذا ما تعزز بنفوذ الخديوي وتيارات المعتدلين من كبار الملاك ومتوسطيهم قرروا انتهاج سياسة « مرنه » تجاه الخديوي والعناصر المعتدله بهدف عزل الحزب الوطني واظهاره بمظهر « المتطرف » ويستشعر مصطفى ذلك فيقول في رسالته « ان اختيار سير الدون جورست قنصلاً عاماً لانجلترا في مصر سيطيل هذا الكفاح لأن موقفه سيكون مائعاً ليناً مليئاً بالولاء للخديوي لاخماد الحركة الوطنية أو لايجاد سوء التفاهم بين الوطنيين والخديوي . انها سياسة فرق تسد . »

لكن صعود الحركة الوطنية يلهم الزعيم المزيد من الرؤية

---

(١) فتحي رضوان – المرجع السابق – ص ٨٠ .

الصافيه بل والمزيد من القدرة على تحديد المواقف بمرونة اكثر ، ان الزعيم لم يعد بحاجة إلى ربط نفسه بعجلة الخديوي فخلفه شعب يموج بالفعل الثوري والكراهية العميقه للاحتلال والرغبة الاكيدة في مناهضته ويمضي مصطفى إلى نهايه رسالته قائلاً « ان السياسة الوطنية الصحيحة التي يجب انتهاجها في مثل هذه الحالة هي ملاحظة موقف المحتل بكل دقة واهمال الخديو ، ان ساير جورست » [1]

لكن مصطفى لا يريد ان يضع جميع الخصوم في صف واحد ، فيظل محتفظاً باكثر من خيط يتصل به مع الخديوي .. بل لقد أقام علاقة « خاصة جداً » مع الخديوي لم يعلم بها احد من معاونيه ، وحتى فريد يكتب في مذكراته « عدنا إلى مصر . واستمرت مقابلاتنا للخديوي ومخابراتنا بواسطة الدكتور رمضان ولم نعلم علاقة مصطفى بالخديوي ولا مصالحته معه إلى ان مات رحمه الله » [2] .

ولعل هذا « الصلح السري » – والمنفرد « بين مصطفى والخديوي كان موضوع الاوراق التي اثارت حديثنا سابقاً في هذه الدراسة والتي سلمها علي فهمي كامل للخديوي يداً بيد مقابل مبلغ من المال .

وعندما تولى فريد الزعامة ظلت الاستراتيجية كما هي ..

---

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ٢٤٤ .
(٢) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٣٢ .

التحالف مع الخديوي كلما أمكن ذلك ، وكلما امكن ايقافه موقف الخصومة مع الاحتلال ، لكن فريد بما عرف عنه من الحدة ، والصرامة في المواقف قد ضيق كثيراً من باب المناوره، وكان حتى في ساعات صفائه مع الخديوي يستدرجه بضغط سياسي جماهيري مكثف لاتخاذ مواقف صحيحة ويروي فريد في الجزء الثاني من مذكراته كيف شرع الحزب الوطني في جمع توقيعات للمطالبة بالدستور (٧٥ ألف توقيع) سلمت للخديوي « حتى اذا سافر إلى انجلترا تكلم مع الملك ادوارد واظهر له ان الامة طالبة للدستور ، وانه يرى اعطاءها اياه لانه من حقوقها »

كذلك كان فريد حريصاً على ان يعامل الخديوي معاملة الند للند وليس كما كان يفعل مصطفى . ويورد فريد نموذجاً للمحاورات التي كانت تجري بينه وبين الخديوي ...

« وفي مايو عزمت على السفر إلى اوربا وقابلت الخديوي قبل السفر بيومين ودار بيني وبينه هذا الحديث :

الخديوي : ماذا عزمت عليه يا سي فريد ؟

فريد : سأسافر لأوربا واسير في طريق مصطفى حتى لا يقال ان الحركة ماتت بموته ولأظهر للعالم الاوربي ان حركتنا قوية لا تقوم بقيام شخص ولا تسقط بموته .

الخديوي : عظيم ... عظيم .. سافر نجح الله مقاصدك .

فريـــد : سأسافر ان شاء الله وانا اطلب من افندينا الايعاكسني في مساعي ، والا يرسل من خلفي من يسعى ضدي او يعرقل مساعي كما فعل أفندينا في العام الماضي (١٩٠٧) حيث ارسل حافظ عوض واباظه باشا والشيخ علي يوسف إلى لوندره لمعاكستي .

الخديوي : لا والله يا سي فريد لا تخف .. مصطفى نوع وانت نوع ومع ذلك فانا لم ارسل حافظ عوض في العام الماضي .

فريـــد : ان أمر إرساله مثبوت وأنك أعطيته ثلاثمائة جنيه مصاريف سفريته .

الخديوي : لا والله مايه وخمسين فقط (ثم تلعثم وتغير لونه) فقمت وانصرفت مودعاً » [1]

ولنقارن بين هذا الحوار وبين رسالة مصطفى إلى الخديوي التي اوردنا نصها في بداية هذا الفصل ...

ولعل احد اسباب هذا الفارق الواضح ان مصطفى كان في رحلته لاوربا مبعوثاً للخديوي ويتعين عليه اولاً ان يحصل على موافقة « سيدي الأعلى ومولاي .. على بوجرام الرحلة ، بينما فريد كان يسافر ممثلاً لحزب راسخ الاقدام ولحركة وطنية منتعشة وكان لا يحتاج تمويلاً من احد لرحلته .. واهم من هذا

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٣٤ .

ان الخديوي كان يناوئه بالفعل . ناوأه كما عرفنا من الحوار السابق في رحلته عام ١٩١٧ ثم ناوأه ايضاً حتى بعد هذا الحوار ففريد يكمل مذكراته عن هذه الفترة قائلاً « سافرت بعدئذ إلى اوربا وبعد قليل سافر الوفد الاباظي إلى لوندره وكان من ضمنه محمود بك سالم وعبد اللطيف بك الصوفاني ورئيسه اسماعيل باشا اباظه ومعه حافظ عوض وكانت مهمته الاتفاق مع الانجليز على اعطائنا دستوراً صغيراً في مقابل قتل حركة الحزب الوطني والاعتراف ضمناً بالاحتلال الانجليزي .. وهذا دليل على عدم اخلاص الخديوي ، فانه لم يخبرني بشيء من هذا يوم وداعي له ، مع ان الامر كان متفقاً عليه » (١)

وهكذا بدأت المعركة سافرة بين فريد والخديوي « وكانت نتيجة رفضي للاتفاق مع الانجليز وطعني على الوفد الاباظي تغيظ الخديوي مني لانه كان ابتدأ في سياسة الوفاق مع الانجليز وعضده في ذلك بطرس باشا وكنت قد انتقدت هذه السياسة في خطبة ابريل ١٩٠٨ وحذرت الخديوي من سوء نتيجتها . ولكن بطرس باشا تغلب عليه واقنعه بأن الحركـــة الوطنية لا شيء والاحسن استعمال سياسة الشدة معها . وسافرا معاً إلى لوندره وهناك تقوت سياسة الوفاق . وعاد الخديوي لمصر مصراً على محاربتنا وأتتنا أخبار ذلك من باريس ممن قابلوه من الأخوان .. من هذا اليوم ايقنت ان الرجل خاننا واتفق مع الانجليز بواسطة

(١) المرجع السابق – ص ٢٣٤ .

بطرس باشا والسير الدون غورست على محاربتنا فكتبت في اللواء مقالة شديدة ضده يعنوان « ماذا يقولون ؟ » كانت سبباً في طعن جرائد المؤيد والاهرام التي تأتمر بأوامر المعية ... وزاد الخلاف بيننا نحن معشر الحزب الوطني وبين الخديوي ورجاله [1]

ويواصل فريد سياسته المتشددة تجاه الخديوي ، الذي استسلم للانجليز ، وتتوالى المقالات العنيفة تطعن في الخديوي وتلومه ، وتعلن للملأ ان الحزب الوطني يسير في طريق العداء للاحتلال والخديوي معاً .

ويكتب اسماعيل شيمي في اللواء في ١٧ نوفمبر ١٩١٨ « كنا نرتكن على اميرنا المحبوب في حصولنا على الدستور لكننا خاب املنا فقد صرح الجناب العالي بأنه لا يحكم من الآن الا مع الاحتلال لا بدونه.. وانا لا أتكهن في قولي هذا فسمو الخديوي قال في خطبته الاخيرة انه حر في ان يشرك في عرشه من يرضى عنه ، وليس لاحد الحق في ارجائه عن رأيه . ولكن بما ان بيننا وبين ذلك العرش طريقاً من ارادتنا لا يمكن اجتيازه فليتكرم بمنحنا الحق في ان نعتبر كل اتفاق يكون اساسه التصرف في حريتنا ملغياً وباطلاً . »

ثم يمضي المقال ليحذر الانجليز من ان اتفاقهم مع الخديوي لا يعني رضوخ المصريين « ان الاحتلال ينخدع كثيراً إذا ظن ان في استطاعته أن يقتل فينا كل رجاء في مستقبل حسن فان

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ .

محبة الأمير مهما عظم شأنه لا تختلف البتة عن محبة أي فرد . وارادة الفرد لا تتغلب على ارادة المجموع . »

ويختم اسماعيل شيمي مقاله بعبارة مليئه باليأس تعبر عن حقيقة الآمال التي علقتها قيادة الحزب الوطني على الخديوي وعن اشفاقها من ابتعاد الخديوي عن المخطط الوطني « لقد اصدر الاحتلال حكمه علينا . وأمن الخديو على ما فعل .. ووزارة الوفاق قد تألفت فلا مناص من التنفيذ . فلنجتمع صفاً صفاً . ولنشيع الحرية مارة في نعشها » [١]

والحقيقة ان فريد قد حاذر طويلا من التصادم مع الخديوي مدركاً ان ذلك سوف يفيد الاحتلال .. وعندما أتى جورست واشتم الوطنيون رائحة الوفاق بين النصر والاحتلال استخدم فريد اسلوب الملاينة والتحذير المليء بالمودة فكتب يقول « نعم لا يخطر على بال مصري ان سمو الخديوي المتربي في وسط الامم الحرة ينخدع بما تزينه له سياسة السير الدون جورست اللينة الملمس ويضع نفسه فعلا تحت حماية انكلترا . بل نحن على ثقة بأن قلبه الكبير يتألم بقدر تألم قلوبنا ان لم يكن اكثر من وجود الاحتلال الاجنبي ببلاده وتتوق نفسه العالية إلى ان يكون حراً في بلاده يحكمها بصفة امير دستوري بالاشتراك مع مجلس نيابي عالم بقوته وبالواجب عليه [٢]

---

(١) اللواء ١٧ — ١١ — ١٩٠٨ .
(٢) اللواء ١١ — ٤ — ١٩٠٨ .

وتمضي عدة اشهر على سياسة الوفاق ، والخديوي يتورط اكثر فاكثر في المخطط الاحتلالي المناوىء للحزب الوطني ومع ذلك يترك له فريد باباً للتراجع « وما زال اعتقادي في حكمة خديوينا العباس يجعلني مرتاح البال من هذه الوجهة » ولكنه يلوح للخديو بالعصا الغليظة قائلا « يقولون ان الجناب العالي كان يظهر ارتياحه للحركة الوطنية وللقائمين بها ، بل ويشجعهم ايضاً على تكوين الأحزاب والاندية السياسية لتنظيم الحركة وتوحيد الكلمة ليكون للمطالبة تأثير فعلي . الا أنهم يقولون ان قصد سموه من ذلك كان محاربة اللورد كرومر شخصياً لا محاربة الاحتلال ولا تأمين مطالب المصريين ، وان سموه — حفظه الله — كان يقصد اخراج كرومر من مصر فاستعمل رجال الوطنية لهذا الغرض » [1] .

ولكن ماذا تجدي العلانية وماذا يجدي النصح أو حتى التهديد مع « خديوي » ضعيف لا يريد اكثر من سند ليقوي حكمه فان كان السند الحركة الوطنية كان بهـا . وان كان الاحتلال فهذا افضل واكثر ضماناً .. وتنشر ليتندر صحيفة الحزب تصريحاً للخديو يؤيد فيه الاحتلال وتعلق عليه قائلة : « سواء كان الخديو على علاقة طيبة او سيئة مع الانجليز فاننا سنستميت في كفاحنا . اننا نخدم الوطن الذي يسمو على جميع الخديويين وجميع الرجال » [2] .

(١) اللواء ١١ — ٩ — ١٩٠٨ .
(٢) ليتندار — ٢٧ — ٥ — ١٩٠٧ .

وتتضح الصورة .. ويمضي الخديوي في طريق العداء للشعب ويصدر قانون المطبوعات ليكمم افواه الصحافة الوطنية ، وتفترق السبل .

فتنشر اللواء قصيدة تنعي فيها علاقة بدأت حميمة وربما اكثر من حميمة :

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخشى منا بعد ذاك عتابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا ان نكون غضابا
وارضيت أعداء البلاد واهلها
واصليتنا بعد الوفاق عذابا
الا أمطر الله الوزارة نقمة
ولا بلغت مما تروم مراما

...ويمضي الخديوي في طريقه مبتعداً ليعمق الخلاف بينه وبين فريد والحزب ، والحركة الوطنية عموماً . ويدلي عباس بتصريح لجريدة « الطان » الباريسيه قال فيه « لقد اشتغلت دائماً بترقية بلادي وتقدمها في الحضارة . ولكن بالأسف وجد قوم متسرعون جداً جداً أخروا تقدمها الطبيعي بالحاقهم في مطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بالضوضاء وقال « ولي وطيد الامل في القيام بمهمتنا بمساعدة البلد الذي يؤيد مصرنا تأييداً في رفع شأنها وتمدينها . وان وجود ممثل هذا البلد سير الدون جورست

بيننا يعتبر ضمانة وثيقة لتحقيق ذلك » (١)

ولا يترك فريد هذه الخطيئة التي تروي فيها الخديوي دون ان يذكره بأن ما يلومهم عليه اليوم ، كان هو نفسه فيه بالامس فكتب مقالا في جريدة « الشعب » يقول فيه « ولا أدري ما الذي حمل سمو الامير على اعتبارنا متسرعين وملحفين في طلب الدستور مع ان مبادئنا لم تتغير من ١٩٠٧ إلى الآن .. نعم هي مبادئنا التي بناء عليها سعينا في حصول التوقيع من الامة على طلب الدستور من سمو الامير .. فقبلها منا بكل بشاشة وشجعنا على ان نستمر في هذا الطريق .. فهل ما كان جائزاً ومطابقاً للعقل والحكمة في ١٩٠٧ اصبح يعتبر تسرعاً « والحافاً في

ثم يمضي فريد مهاجماً الخديوي بعنفه المعروف « اذا كانت الظروف السياسية تضطر احيانا رؤساء الحكومات إلى المسالمة وتحملهم على ان يستنتجوا اليوم ما كانوا يرونه حسناً أمس فالامم لا تغير مطالبها الطبيعية ، ولا تتقهقر مطلقاً إلى الوراء بمجرد استبدال كرومر بجورست فانهما في عينها سواء .كلاهما يمثل الاحتلال الممقوت » (٢)

وتدور عجلة العداء ...

ومع ذلك يظل الخديوي ويظل الاحتلال بحاجة إلى مباركة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠ .

فريد لسياسة الوفاق او حتى غض الطرف عنها ، وعندما قدم فريد للمحاكمه بسبب مقدمته لديوان وطنيتي «ارسل اليه الخديوي يبلغه الوعد بحفظ القضية في مقابل ان يقوم فريد بزيارته فرفض فريد رفضاً باتاً » (١)

وصمم فريد على ان يصعد بالعداء للخديوي إلى مداه ، وعلى ان يتحداه بل ويهينه علناً ويروي احمد شفيق باشا في مذكراته عن عام ١٩١٢ « منذ عامين والجفاء يشتد بين الخديوي والحزب الوطني ، وفي ١٩ يناير من هذا العام اقيم حفل لرعاية الاطفال بدار الاوبرا تحت رعاية سمو الخديوي وحضره مندوب من قبل سموه وقد حدث عند دخول المندوب وعزف الموسيقى لنشيد الخديوي ان وقف جميع الحاضرين حسب الاصول ما عدا محمد فريـد بك رئيس الحزب الوطني مما إسترعى انظار الحاضرين جميعاً ، ولما كانت هذه الحادثة الاولى من نوعها تناقلتها الالسن والصحف وكانت لها ضجة في داخل السراي وقد خاطب حسين رشدي باشا فريد بك في هذا الشأن فأجابه بأنه ليس هناك قانون يحتم عليه الوقوف وكانت هـذه الظاهرة بمثابة اعلان حرب علنية على الخديو ، والخروج على الاحترام اللائق به » (٢)

والمعركة لم تكن ابداً معركة بين خصمين ... بل هي معركة

(١) محمد علي غريب ص ٣٣ .
(٢) المصور — ١٤ — ١٢ — ١٩٦٩ .

بين سياستين سياسة الوطنية الصحيحة وسياسة الوفاق مع الاحتلال ، ومن هنا نستطيع ان نفهم المبرر لكل هذا القدر من الاحتقار الذي تعامل به فريد مع الخديوي عباس .

ولقد حاول الخديوي ان ينظم هو الآخر حملة تشهير ضد فريد فأشاع انه ارسل ٣٠٠ جنيه إلى محمد فريد لمساعدته على السفر من مصر وانه هو الذي حرضه على الهرب ... وما ان سمع فريد بذلك حتى كال الصاع صاعين للخديوي . فأرسل له خطاباً بالبريد المسجل قال فيه « سمو خديوي مصر :

لقد علمت من الاخبار الخصوصية الواردة من مصر انكم كلفتم احد اخواني ممن يترددون عليكم بأن ينصحني بالسفر عقبي استجوابي بالنيابة .. وانكم ارسلتم له مبلغاً من المال ليوصله إلي مساعده على مصاريف السفر . فاستغربت جداً حصول هذا الامر بعد ما كتبته لكم بخصوص حادثة (...) والثلثمائة جنيه التي اخذها باسمي وطلبت منكم تحقيق بخصوصها ، ولكنكم اهملتم امرها .. وبعد ان أعلمتكم اني أترفع عن قبول اي مساعدة منكم ولو كنت في احط دركات الفقر ، مع اني بحمد الله في سعة من العيش .. فلتكونوا على ثقة بأن كل من يأخذ منكم باسمي هو من باب النصب واني لا اقبل ولن اقبل منكم أي مساعدة ما دامت مهمتي الجهاد في تحرير البلاد من الانجليز ومن كل من يعاونهم على توطيد قدمهم في مصر كائناً من كان

والسلام على من اتبع الهدى .

المخلص

محمد فريد [1]

وكان الخديوي يستخدم جواسيسه لمتابعة كل تحركات فريد ، ومن بين هؤلاء الجواسيس مدام روشبرون التي قالت الكثير من الادعاءات حول علاقتها بفريد .. لكن فريد يحسم الامر في اكثر من موقع من مذكراته مؤكداً انها لم تكن اكثر من جاسوسة من جواسيس الخديو فهو يقول في مذكراته عن يوم ١٢ سبتمبر ١٩١٣ :

« وهذه السيدة تنقد ٢٠ جنيهاً تركياً شهرياً للتجسس علي وافادتهم بأخباري ولكنها اخبرتني بجلية الامر وهي الآن تنقل لي اخبارهم كما تنقل لهم ما تقف عليه من اخباري » [2] .

لكن تقلبات الايام تأتي بنتائج لم يتوقعها احد .. فالخديوي يتصادم مع الانجليز ، بل ويخلعه الانجليز لأنه انحاز إلى العثمانيين وفجأة يجد فريد والخديوي نفسيهما وهما منفيان بعيداً عن ارض مصر ، يخوضان المعركة ضد نفس العدو وان اختلفت الاهداف واختلفت الوسائل .

فمدام روشبرون تبلغ فريد أنها قابلت يوسف باشا صديق

---

(١) محمد علي غريب – المرجع السابق – ص ٣٤ .

(٢) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٦٣ .

وانه اخبرها « ان الخديوي لا يهمه الرجوع إلى مصر ، ولكنه يسعى الآن لحفظ أمواله في مصر من المصادرة ، ولحفظ ولاية العهد لابنه عبد المنعم وهذا يؤيد فكرة ان الرجل اناني قبل كل شيء » (١)

وتظل اموال الخديوي بمصر سلاحا يرهبه ويجعله متردداً دائماً في الهجوم على الانجليز . وحتى عندما يتفق معه فريد على نص بيان يصدره من المنفى متعهداً بمنح مصر دستوراً اذا ما عاد إلى العرش ، نراه يتردد في اصداره ، بل وينفيه بعد ان يصدر ويشير فريد إلى ذلك في مذكراته قائلا « نشرت جريدة فرانك فيرتس زيتونج ملخص المنشور الذي كان جهز وطبع لينشر باسم الخديوي وبه منح الدستور ولكن الخديوي كذب نشره في الجرائد ، وقال ان ذلك الامر كان في النية ، ولكنه لم ينفذ للآن . وهذا التكذيب ناشيء من خوفه من ان الانجليز يصادرون املاكه في مصر ، فهو ما زال يراعي مصالحه الخصوصية رغماً من وصول الحالة إلى هذه الدرجة »

ثم يمضي فريد ملخصاً كل تاريخ العلاقة بينه وبين الخديوي وربما تاريخ كل علاقة مماثلة فيقول « الخديوي يظهر ضعفاً شديداً أمام الحوادث ولم أر فيه قوة على تحمل المصائب ، ولذلك فاني أشجعه وأقويه دائماً خوفاً من ان يميل إلى الصلح مع الانجليز في وقت من الاوقات وان كنت استبعد هذا الآن » (٢)

(١) المرجع السابق – ص ٢٩٩ .
(٢) المرجع السابق – ص ٢٩٢ .

وهكذا يكون على الحركة الوطنية دوماً ان تتحمل قسوة وعنف امثال الخديوي عندما يكونوا اقوياء ، وان تحتملهم وتسندهم عندما يصبحوا ضعفاء .

* * *

.. وتكون العلاقة مع العثمانيين — هي الاخرى — محلا لتساؤلات عديدة .

واذا كانت العلاقة مع الخديوي قد اكتسبت وضعاً معقداً بسبب ارتباطها بالموقف من الاحتلال والتذبذب حوله صعوداً وهبوطاً من جانب الخديوي، فان العلاقة مع العثمانيين تكون اكثر تعقيداً — بما لا يقارن — لارتباطها « بالاسلامية » وفكرة « الخلافة » — وايضاً نتيجة لتصور الزعيمين مصطفى وفريد — لبعض الوقت — ان القول بالتبعية للخليفة التركي هو سبيل لنفي مشروعية الاحتلال البريطاني ...

وهكذا نشأت واحدة من اكثر العلاقات السياسية تعقيداً في تاريخ مصر الحديث . ولكي نفهم مثل هذه العلاقة المليئة بالتعقيد يتعين ان نضع في الاعتبار انه في اعقاب الاحتلال البريطاني وانتزاع مصر — فعلياً — من اطار الخلافة اصبحت « الاسلامية » واحدة من ادوات النضال ضد الاحتلال .

لكن استخدام الدين في لعبة السياسة سلاح ذو حدين . فالاحتلاليون يستخدمونه ايضاً لشق قلب مصر نصفين ....

والحقيقة ان المشاعر الوطنية « المصرية » قد تبلورت في مناخ بالغ الصعوبة وبالغ التعقيد . فهي تنشأ في خضم الصراع بين قوتين هما ايضاً متصارعتين فيما بينهما الاحتلال الانجليزي والخلافة الاسلامية العثمانية .

وكان من الطبيعي ان يبحث الحنين الوطني عن سند في العدد الاقل عدداً ضد العدو الاشد عداءاً . ربما لم يفهم الامر بهذه الصورة ، وربما قيلت كلمات تميل بتطرف نحو هذا الجانب او ذاك لكن المحصلة النهائية كانت تقترب دوماً من هـــذه الفكرة ...

وفي ١٨٩١ بدأ فريد في كتابة مذكراته ... وتلفت نظرنا عبارة وردت في اول صفحة من هذه المذكرات « ان الوحدة الجنسية آخذة في النمو بين الافراد وكذلك الشعائر الوطنية ففي ازدياد يوماً بعد يوم حتى لم يعد المصري يأنف من كونه مصرياً وينتحل له جنسيه اجنبيه كأن يدعي انه تركي مثلا » (١) .

لكن نتوءاً جديداً يبرز في اطار الصورة العامة . فالمثقفون السوام يتوافدون بكثرة هرباً من الظلم العثماني ويفتح لهم الاحتلال صدره ... ليعطيهم الفرصة في العمل في الوظائف الصغرى والوسطى في السلم الحكومي والتي يأنف الاجانب من توليها .

---

(١) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٦٥ .

والحقيقة ان الاحتلال البريطاني قد خطط الامر جيداً . فهو بحاجة إلى جهاز حكومي متكامل قمته من الاجانب وابناء العائلات التركية ... لكن ماذا عن قاعدته . لقد حاول الانجليز ابعاد المصريين قدر الامكان عن سلم الوظيفة لانهم يعلمون ان جيلا او جيلين كفيلين بتطوير هذه الفئة من الموظفين الصغار إلى عناصر مناوئه تطالب بالصعود إلى قمة الجهاز . وبهذا كان اللجوء للشوام سداً للطريق امام أي صعود مصري، وتأكيداً للمقولة الاحتلالية بان المصريين ليسوا اكفاء لممارسة أي عمل حكومي منظم .

وفي مذكراته يقدم لنا فريد تصوراً مماثلاً فهو ينتقد تعيين بعض الموظفين المصريين غير الاكفاء قائلاً في مذكراته عن يوم ١٠ ابريل ١٨٩١ « اني أرى في تعيين مثـــل هؤلاء في الوظائف نظراً لمحسوبياتهم مضر من جملة وجوه اهمها ان ذلك مما يزري بالمصريين في اعين الانكليز لانه يحملهم على الظن انهم احسن ما يوجد بين المصريين مع إن الامر بخلاف ذلك لا سيما وان الشوام وغيرهم من الدخلاء ينتهزون مثل هذه الغرض للوشي في حقنا وتفهيمهم انه لا يوجد في المصريين اكثر اهلية من هؤلاء (١)

« الشوام » الطعم الذي قدمـــه الاحتلال يجري ابتلاعـــه بسهوله .. ويصبح الطعم ساماً عندما نتذكر ان غالبية هؤلاء

---

(١) المرجع السابق – ص ٨٤ .

« الشوام » كانوا مسيحين . فيصبح التناقض مركباً ليس مجرد مصري ضد شامي وانما وهذا هو الاخطر مصري مسلم ضد شامي مسيحي ..

وفلح « اثار الطعم في مذكرات فريد ... « وعلى ذلك فالجرائد الوطنية الحقيقية في مصر هي جرنالي المؤيد للشيخ علي يوسف والوطن لميخائيل افندي عبد السيد وكلاهما مصري محض لم يختلط بدمه دم اجنبي ... اما الاهرام فمحرره ، نقولا بك نقلا « الشامي » وخطته الدفاع عن مصالح فرنسا في مصر . والمقطم والنيل وقد سبق الكلام عنهما » (١)

ومرة ثانية فلح اثار الطعم « وتواردت الرسائل على الجرائد من الوطنيين الذين لا يريدون الا استقلال وطنهم.. اما المقطم « الشامي » الانكليزي فكان وانما من المساعدين على ازدياد نفوذ الانكليز . والاهرام الشامي الفرنساوي مذبذب لا يود الا الطعن على الوزارة الوطنية (٢)

ويمضي فريد فيمذكراته يتابع في اهتمام غريب كل «شامي» جديد يتولى منصباً وهو يقول في أسى واضح في مذكرانه عن اول مارس ١٨٩٢ « وصدر قرار المالية بتعيين يوسف بك مجلة الشامي وكيلا لمصلحة الجمارك بماهية الف جنيه سنوي ولا يدع لو رأينا تلك المصلحة بعد ذلك بقليل مفعمه بالشوام وأبوابها

---

(١) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق – ص ٧٣ .

موصدة في وجه المصريين ولا نلومن الا أنفسنا » [1] .

وفي ٣٠ مارس ١٨٩٢ يعود وفي مذكراته إلى القول « كان الناس متخوفين من تعيين احد الشوام بدل احمد زكي افندي رئيس قلم المعاشات لكن قد تعين بدله علي افندي المطراوي المصري [2]

بل انه في مذكراته عن يوم ٣ نوفمبر ١٨٩٤ يقول « ولا يمضي قليل حتى نرى الدخلاء الشوام انبثوا في المديريات بوظائف عالية وربما عين منهم المديرون وهي الطامة الكبرى التي نخشاها الآن اذ الشوام أخذ على مصر من الانكليز أنفسهم »

... ويصل به الأمر إلى القول « عين محمد أفندي بيرم التونسي سكرتيراً للمستر غورست وشاع عنه انه ميال للانكليز الا انه على حال اقل ضرراً من الشوام » [3]

ولعله من حق فريد علينا ان نسجل له انه قد ابتلع نصف « الطعم » فهاجم الشوام لكنه رفض في مرحلة ما الشق السام منه وهو المتعلق « بمسيحية » هؤلاء الشوام ..

وبرغم ان البعض يصمم على اضفاء مسحة « اسلامية » على نهج مصطفى وفريد الوطني الامر الذي يوكده د . انيس

(١) المرجع السابق ص ١١٤ .
(٢) المرجع السابق – ص ١١٨ .
(٣) المرجع السابق – ص ٢٢٠ .

صايغ اذ يقول : « ان الحزب الوطني كان مثلما كان مؤسسه مصطفى كامل وخليفته في الزعامة محمد فريد مصرياً في الدرجة الاولى واسلامياً في الدرجة الثانية » [1] . برغم هذا التأكيد فإن الدراسة المتأنية تؤكد عدم صحة هذا القول ... صحيح ان الحزب الوطني قد سيطرت على بعض صحفه — في فترة من الوقت — نزعة . « اسلامية » واضحة الا ان البحث الاول يوضح لنا انها بصمات الشيخ عبد العزيز جاويش ويوضح ان « الزعيم » كان يرفض هذا النهج ويتحاشاه ... ويدعو إلى وحدة عنصري الامة باعتبارها طوق النجاة ....

يقول مصطفى كامل في حديثه لجريدة الاكلير الفرنسية « ومحصلة القول ان البحث في المسائل الشرقية على مبدأ الدين من اكبر الوسائل لتوليد الاحقاد والضغائن وتأجيل توطيد السلام العام » [2] .

ثم هو يؤكد مرة أخرى « ان المسلمين والاقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الابد » [3] .

بل اننا نلمح بالغ الاهمية لمصطفى كامل عندما يقول في كتيبه « اخطار الاحتلال الانجليزي » وفضلا عن ذلك فان

---

(١) د . أنيس صايغ — الفكرة العربية في مصر — ص ٤٩ .
(٢) علي فهمي كامل — المرجع السابق — ص ٣٥١ .
(٣) فتحي رضوان — المرجع السابق — ص ٢٥٦ .

التجانس بين السوريين والحجازيين والمصريين يدعوهم عند تفرقهم الى الاجتماع تحت حكم حكومة واحدة »[1]

وهكذا فان مصطفى لم يكتف برفض الشق السام من الطعم ، بل رفض « الطعم كله ... وردد ما يمكن القول بأنه اول دعوة للعروبة في الفكر المصري الحديث ...

هذا عن مصطفى .... فماذا عن فريد ؟

من البداية كانت لفريد تحفظاته على الاتراك كأتراك ... وهو يقول في مذكراته « في اول اكتوبر اجتمع مجلس شورى القوانين تحت رياسة حسن باشا حلمي وكيله وهو من الباشوات الاتراك الذين لا يفقهون في أمر البلاد الا قولهم ان الدواء للفلاح الكرباج[2]

وفي مذكراته عن ١٧ نوفمبر ١٨٩٤ يقول فريد « وينتظر تغيير المديرين الذين من الطبقة القديمة والاستعاضة عنهم باشبان المتعلمين الذين يدركون معنى الوطنية ، وحقوق الوطن عليهم ولا يكتفون بالرواتب والابهة والعظمة واضطهاد المصري واحتقاره كالباشوات القدماء الذين من اصل تركي او يدعون ذلك وكانوا سبباً في ضياع البلاد بل ربما كان لهم يد في ادخال الانكليز بمعارضتهم عرابي باشا في مشروعاته الوطنية لكونه فلاح ليس الا[3]

(١) مصطفى كامل — أخطار الاحتلال الانجليزي— (١٩٠٨) .
(٢) رؤوف عباس — المرجع السابق — ص ٢١٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢١ .

هو اذن ضد الاتراك ... لكنه مع ذلك يرى اهمية التأكيد على تبعية الحكومة المصريه إلى الدولة « العثمانية » ، وزعم ان هذه التبعية لا تفيد مصر اقل فائدة مادية بل بالعكس . الا انها تفيد فائدة ادبية وهي تقوية حجة المعارضين للانكليز في مصر[1]

وهو يؤكد هذا التصور في صفحة اخرى من مذكراته اذ يقول « ولو ان الدوله العليه غير قادرة على الزام الانكليز على الخروج من مصر لكن لا يخفى ما في تأييد روابط التبعية من غل ايدي الانكليز عن ابتلاع مصر صفقة واحده[2] .

وعندما زار الخديو عباس الآستانة في عام ١٨٩٣ يشير فريد إلى هذه الزيارة بابتهاج مؤكداً ان الانجليز قد غضبوا من « هذا المشهد المكدر لهم ولكل محبيهم ولم يتمالك المقطم من اظهار غيظه وغيظ اسياده الانكليز وقد سافر وسيسافر كثير من اعيان المصريين إلى الاستانة للاحتفال بخديويهم هناك وهي اريحية وطنية تدل العموم على تعلق المصريين بالباب العالي وبغضهم للانجليز .... ويدل دلالة واضحة على بغض المصريين للانجليز وتعلقهم بالخلافه الاسلامية على خلاف ما كان يشيعه الانجليز وجرائدهم كذباً وبهتاناً[3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٣ .

لكن فريد قال ان الذي رفض في بادىء الامر الشق السام من الطعم الانجليزي لا يلبث ان يسقط في الفخ ، فتظل من كلمات اشارات ذات صبغة طائفية .

فهو يشير في مذكراته إلى صدور كتابات تاريخ الدولة العلية . فيقول ان هذا الكتاب قد اثبت « فضل الدولة في ابقاء الاسلام والدفاع عنه مع مقاومة جميع دول اوربا المسيحية وبرهن على ان المسألة الشرقية دينيه لا سياسيه » .

وهو ينتقد في المذكرات ايضاً « تعيين امين بك غالي اخو بطرس باشا غالي رئيساً للنيابة المختلطة بمصر وهو تعيين في غير محله اذ لا يصح ان يكون رئيساً للنيابتين الاهلية والمختلطة من الاقباط ، مع وجود شبان المسلمين الاكثر تصلفاً ويقال انه سيعين هذا القبطي بعد قليل قاضياً في محكمة مصر المختلطة بدل احد قضاة المسلمين الذي سيحال على المعاش لكبر سنه [1] ثم هو يلح على هذا الموقف فيشير إلى ان الجناب العالي حضر تجربة « الوابور البترولي الذي اخترعه احمـــد بك صبري المصري المسلم[2] .

وعندما يشير في مذكراته إلى ازمة وقعت بين الحكومة المصرية والحكومة اليونانية واضطرار الحكومة المصرية للاعتذار تحت ضغط القناصل فانه يفسر الامر تفسيراً دينياً مقبولاً .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٤ .

« وهذا أمر يوجب كدر كل وطني لأن دولة اليونان دوله حقيره بالنسبة لمصر ، لكن كل الدول المسيحية مساعدة لها في كل اعمالها فان الكفر مله واحده ، والغرب يد واحدة على الشرق وخصوصاً المسلمين » (١).

بل هو في بعض الاحيان يتخلى عن فكرة الاستقلال التام لمصر ارضاء للنزعة الطائفية ... فيقول « لا خلاص لمصر من استيلاء الانكليز عليها الا بتقوية عرى التابعية للدولة العلية أو بجعل مصر حرة مضمونة من كافة الدول . لكن الاول لحفظ نفوذ الاسلام في الملاكة هو التابعية للخلافة المحمدية (٢).

وعلى اية حال فان موقف الزعيمين مصطفى وفريد يلتقي عند محور واحد هو تأييد الخلافة العثمانية والدعوة للارتباط بها نكاية في الانجليز . مصطفى من منطلق سياسي بحت وفريد على اساس سياسي ذو مسرة اسلامية .

فمصطفى ينشر في الاهرام حوار له مع شقيق كرومر بعنوان « حديث ذو شأن » يقول فيه : « بدأ في حضرته بالكلام على خلاف عادة الانكليز فقال ــ هل انت مصري ام عثماني ؟ فأجبته مصري عثماني فقال وسمة التعجب بادية عليه وهل تجتمع الجنسيتان في احد ؟ فقلت ليس في الامر جنسيتين بل في الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع لا

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .

يختلف عن المتبوع في شيء من احكامه [1] .

ويلتقط الخليفة العثماني « خيط » الزعامة المصرية الوليدة ويشير فريد في مذكراته بزهو بالغ « حضر الفاضل مصطفى افندي كامل الوطني الغيور من الاستانة يوم الاحد ٥ نوفمبر ١٨٩٦ بعد ان اقام بها نحو اسبوعين وأحسن العثمانيون لقياه واهداه السلطان علبة سجاير من الذهب مرصعة بالالماس وهذا دليل قاطع على ارتياح مولانا الخليفة عن عمله ومساعيه [2] .

وتتعزز العلاقه بين السلطان ومصطفى كامل ، لقد التقى السيلان فالطرفان ضد الاحتلال الانجليزي وبينما مصطفى في باريس (يوليو ١٨٩٩) اتصل به سفير تركيا ليبلغه رغبة السلطان في رؤيته للمرة الثانية فوصل الاستانة وفي ٢٠ اغسطس انعم عليه السلطان بالنيشان المجيدي الثاني ثم بالأول فانهالت عليه الصحف المأجورة تكيل له التهم [3] .

لكن البعض يربط بين هذه الزيارة وبين صدور اللواء موحياً بأن تمويل اللواء « كان عثمانياً ... » فما ان وصل مصطفى كامل الاستانة في أوائل سبتمبر ١٨٩٩ حتى انكب على تنظيم الجريدة العربية التي يريد اصدارها واختار لها مديراً ورئيساً للتحرير ومترجمين ومراسلين وبعد ثلاثة اشهر كان

---

(١) الأهرام – ٢٨ – ١ – ١٨٩٥ .
(٢) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٢٧٣ .
(٣) أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ١٥١ .

اللواء معداً للاصدار . وصدر بالفعل في ٢ يناير ١٩٠٠ [١] .

وكان فريد يتخذ نفس الموقف فهو ، ففي كتابه تاريخ الدولة العلية يقول في المقدمة « وقد قصدت بهذه الخدمة ان اقوم بفرض يجب على كل انسان أداؤه لعرش الخلافة العظمى وملجأ الاسلام في هذا الزمان مولانا امير المؤمنين السلطان الغازي عبد الحميد فان الثاني [٢] .

وعندما يصل الخديوي إلى الاستانة يبتهج فريد في مذكراته « وردت الاخبار بما حصل لخديوينا بالأستانه من الاحتفالات الدالة على شدة الارتباط بين التابع والمتبوع مما لا يروق في أعين الانكليز [٣] .

لكننا يتعين علينا ان نتوقف قليلاً لنتحدث عن فريد وموقفه من الطائفية . فلقد تطل من مذكراته التي كتبها في سنواته الاولى وقبل انغماسه في العمل السياسي واشتغاله بالقضية الوطنية بعض فقرات ذات صبغة طائفية ... لكنه كسياسي وكزعيم وطني قد اتخذ موقفاً صحيحاً تماماً ... فقد قاوم « الطائفية » وصار بها حرباً عنيفة ....

وعندما عرض عليه عزيز المصري فكرة اقامة « خلافة

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٢) محمد بك فريد المحامي – تاريخ الدولة العلية العثمانية–المرجع السابق ص٧.
(٣) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٢٠٨ .

عربية على اساس اسلامي » وتأسيس « جمعية شبان العرب » برفض فريد بشدة مقترحات عزيز المصري « بعد ان بينّا له ضرر الانقسام بين عنصري الامة [1] .

كذلك كان فريد هو صاحب الموقف الشجاع الذي تصدى به لمقولات الشيخ عبد العزيز جاويش ولم يكن الشيخ جاويش خصماً سهلاً . وقد تولى رئاسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل .... واقتحم ميدان الصحافة شاهراً سيفاً مسلولاً ذا صبغة اسلامية واضحة . فهو يعلن في اول مقال له « بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن ، وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس ، وفي اسواقها تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وبعونك اللهم استقبل خاتمة حياتي الجديدة ، حياة الصراحه في القول ، حياة الجهر بالرأي وحياة الارشاد العام .. حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ... فاما إلى الصدر واما إلى القبر [2] .

والشيخ جاويش لا يخفي نفسه فهو اسلامي النزعة ... « ولا وطنية في الاسلام » ومن ثم فهو ضد شعار مصر للمصريين وضد الاستقلال التام لمصر ... ويؤكد ان طريق مصر الوحيد الصحيح هو « تعزيز وحدة العالم الاسلامي ممثلة في الدولة العثمانية والعمل على بقاء هذه الوحدة ومقاومة تمزيقها ايماناً منه بأن في تمزيقها

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٥٧ .
(٢) اللواء ١٠ – ٢ – ١٩٠٨ .

ضياعاً للوطن كله وتمكيناً للنفوذ الاجنبي من التهامه » [1]

وجاويش عنيف في موقفه الاسلامي ولا يقبل حوله نقاشاً، فعندما ينتقد احمد لطفي السيد دعوة للتطوع لمساندة المسلمين في طرابلس الغرب ، يرد عليه جاويش ولنتاقل اساوب الرد ليس فقط لنعرف افكار جاويش ، وانما لنعرف ايضاً اسلوبه وطريقه

« لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم واعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم يحاولون ان يصرفوا الامة المصرية الاسلامية عن تخفيف ويلات اخوانهم » .

ثم يوجه حديثه إلى لطفي السيد قائلاً « أي عدو نفسه ... هل نقمت منا ان ندعو المسلمين لنجدة المسلمين وان نستقر الموحدين لاغاثة الموحدين . فماذا كنت تريد ؟ ... وكأنك مكانك ايها الجبان ، فمالك بميادين تميتك صورتها ؟ وتصعقك ذكراها ؟ ان لم تشأ فخير لك ان تحفر الارض بأظافرك وان تتردى فيها ثم ارطم رأسك بالحجاره حتى يخرج من دماغك ذلك المخ الذي كان سبب شقائك وأصل بلائك [2]

وعندما يصرح شاه ايران في نوفمبر ١٩٠٨ بأن المتعلمين من افراد شعبه لا يرغبون في مجلس نيابي او دستور وان علماء الاسلام قد أفتوا بأن المجلس مخالف للشرع ... يرد عليه

(١) أنور الجندي– عبد العزيز جاويش – المرجع السابق ص ٨٣ .
(٢) العلم ٣١ – ١٠ – ١٩١١ .

جاويش بطريقته الخاصة « لم يبلغ الشاه بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة ، فثاب إلى تلك التكأه التي طالما توكأ عليها ضعاف الايمان من أمراء المسلمين ، فجمع حوله من رجال الدين عمائم كالتمائم ، ولحى كذيول الخيل ، وجبباً كأنها اوراق الكرنب ، وسبحاً لا تقل حباتها عن بيض الحمام والسناً لا تريح كاتب السيئات [1] .

هذا هو الرجل الذي قرر فريد ان يخوض ضده معركة قاسية تسببت في تقسيم وحدة الحزب ... الذي خاصمه مخاصمة عنيفة ومستمرة رفضاً لمنهجه «الطائفي»،وحافظاً من فريد على « نقاء » منهج الحزب الوطني من أية شوائب طائفية ...

ان معركة فريد ضد جاويش تكفي بذاتها كي تنفي عن وجدان وتصرفات فريد أية بصمات طائفية ، بل لعلها تمحو هفات طائفية اوردها وهو لم يزل بعد شاباً بعيداً عن السياسة .

لقد ايقن فريد بعمق وبحماس ان الحفاظ على وحدة الامة المصرية هو اسمى الغايات وتمسكاً بهذا الموقف خاصة اعنى المعارك ضد اعتى الرجال في حزبه ...

جاويش وزملائه . كذلك فان فريد ادرك بمرور الوقت ان العثمانيين لا يريدون الخير لمصر وانما يريدون مصر ذاتها ...

وحتى عندما اعلنت بريطانيا حمايتها على مصر وبدأت

---

(١) فتحي رضوان – مشهورون منسيون – كتاب اليوم (أكتوبر ١٩٧٠) . – ص ٣٦ .

تركيا تعد لارسال حملة عسكرية لفتح مصر شعر فريد بمناورات العثمانيين ... وسجل في مذكراته يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤ .
« هذا دليل جديد يضاف إلى غيره مما سبق ذكره ، على ان القوم هنا (العثمانيين) يداعبون الحزب الوطني ليساعدهم على فتح مصر وبعدها ينفذون ارادتهم الاستبدادية في بلادنا ويسجل في اليوم التالي :

« اخذت افكر في جميع هذه الامور فكاد يتأكد عندي عدم اخلاص القوم (العثمانيين) معنا [1] . بل انه يقول « كل هذه الاعمال تنفر المصريين من الاتراك وتجعلنا نخشى ان يكون نصيبنا الشنق لو دخل جمال باشا مصر [2] » .

وفي يناير ١٩١٦ وقبل ان تتضح كفة الغالب وكفة المغلوب في الحرب العالميه الاولى حرص فريد على ان يحدد مركز مصر من كل الأطراف المتحاربة. فتحدث إلى الهر زمرمان وكيل الخارجية الألمانية قائلاً « انه لا يجوز للترك ان يتدخلوا في ادارة مصر ، لجهلهم البلاد واهلها ، بل لجهلهم الادارة ايضاً ، كما هو مشاهد في سوريا وغيرها ، ولا نقبل ان نكون تحت ادارتهم بحال من الاحوال لأننا ارقى منهم كثيراً وبلادنا اكثر انتظاماً من قبل دخول الانجليز وبالاختصار فان الاتراك يريدون ان يأكلوا مصر ، ولكننا لا نقبل ان تؤكل بسهولة فنحن قد

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٨٩ .
(٢) المرجع السابق – ص ٣١٩ .

قاومنا الانجليز ونقاوم كل من يريد اكلنا اياً كان لأننا انمـــا نسعى وراء الاستقلال وغاية ما نقبله ان نكون مع الاتراك مثل المجر مع النمسا . على شرط المساواة في الحقوق والاستقلال في الحقوق والاستقلال التام (١) .

.... وهكذا فان مصير العلاقة بين الحزب الوطني والخديوي ... هو نفس مصيرها فيما بينه وبين السلطان .

.... رحلة مؤقتة على طريق من الشوك تنتهي إلى المزيد من الشوك .

* * *

ولم تكن الرحلة نحو اوربا الاستعمارية باقل مشقة ولا بافضل نتيجة .

وكالعادة كان مصطفى هو صاحب التوجه الاول ـ فقد بنى احلامه على تحرك فرنسا ضد انجلترا يهدف اجلائها عن مصر وتكون بداية العلاقة بفرنسا عبر مجموعات الفرنسيين المقيمين بمصر والذين يستشعرون الغيرة من القبضة الانجليزية المحكمة على مصر . فيقبلون بايعاز من الخديو وبسعي من مصطفى جمعية سرية اسمها « جمعية الدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين » وترتب هذه الجمعية زيارة للنائب الفرنسي « فرانسوادي

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ـ المرجع السابق . ص ٤٢٣ .

لونكل » كانت مناسبة لترتيب مظاهرة رائعة ضد الاحتلال [1]

ويوجه مصطفى كامل إلى فرنسا صيحة تعبر عن مدى الآمال التي علقها على التأييد الفرنسي :

أفرنسا يا من رفعت البلايـــا
عن شعوب تهزها ذكراك
أنصري مصر ان مصر بسوء
واحفظي النيل من مهاوي الهلاك
وانشري في الورى الحقائق حتى
تجتلي الخير امـــة تهـــواك

ويختم مصطفى كامل عريضته إلى البرلمان الفرنسي هاتفاً « فلتحي مصر محررة الامم [2] وتختصر الطريق دون الدخول في تفاصيل كثيرة . ونصل إلى مصطفى وقد اكتشف سريعاً خيانة اوربا بالاستعمارية له ... وفي ٢١ يونيو ١٩٠٠ يكتب إلى مدام جوليت آدم « إني لا اجد الكلمات التي استطيع التعبير بها عن استيائي يا للعار ! انه خير درس لنا نحن الذين طالما اعتمدنا على اوربا » .

وبعد اسبوع يوجه لها رسائل أخرى « ان المرض الذي ابتليت به اوربا وهو رغبتها في امتلاك كل شيء في الوجود

(١) د . حسين النجار — لطفي السيد ص ١٠٣ .
(٢) لمزيد من التفاصيل يراجع د . رفعت السعيد — تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر . دار الثقافة الجديدة (١٩٦٩) ص ٢١٣ .

سيعود عليها بالوبال . ان الانباء تحدثنا اليوم عن الاتحاد الاوربي في الصين والارتباط الوثيق بين القوى الاوروبية فيا له من عار ! [1] .

من اجل « البوير » والتآمر على الصين صاح مصطفى كامل في وجه اوربا «يا للعار » ... وبدأ يستشعر ان آماله الأوربية تتحطم . تلك الآمال التي كانت كل شيء بالنسبة له ... كانت اهم حتى من اقامته في مصر .

ففي فبراير ١٨٩٩ نراه يرسل عبد الرحيم احمد (همزة الوصل بينه وبين الخديو) يشكو له من ان الخديوي لم يمول رحلة جديدة إلى اوربا « لقد فات الميعاد بعد الميعاد ، وانقضت ايامي بين الملل والانتظار ولا أجد في اقامتي في مصر الا ضياعاً لغرض عزيز وتحسراً على خط الملك والبلاد [2] » .

بل انه عندما لا يجد تمويلاً كافياً لرحلته إلى باريس يوجه رسالة إلى صديقه محمد فؤاد سليم يهدده فيها بأنه سيعود « إلى مصر يائساً فاقد الامل ليس من اجل الجلاء فحسب بل من اجل مستقبل الامة المصرية تأكد يا صديقي العزيز انني لن امكث في مصر بعد عودتي دون ان ارى القبر اكيداً .. سوف انتحر ولا اعيش وسط امة جاهدة ، بالاضافة إلى أني لا اعرف انتحر ولا اعيش وسط امه جاهده ، بالاضافة إلى اني لا

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ١٥٧ .
(٢) فتحي رضوان – مصطفى كامل – المرجع السابق – ص ١٥٧ .

أعرف اليأس الا بالموت معاً [1]

ومصطفى كامل يتعامل مع اوربا ليس من خلال الامتناع والعلاقات السياسية وانما بالتمويل وشراء الصحف والصحفيين ويتطلب هذا بطبيعته تمويلاً ضخماً .

ولنتأمل المقترحات التي قدمها مصطفى كامل إلى الخديو حول كيفية ضمان التأكيد الاوربي فهو يقول « وأحسن ناموس يوصلنا إلى المراد ينحصر على ماأرى في الأمور الآتية :

اولاً : أن نسعى في تقوية تيار الحركة الحاصلة في اوربا وذلك لا يكون الا باتباع طريق واحد لا يتغير وهو طريق التحبب إلى كل السياسيين وملاطفة ارباب الصحف والكتابة والخطابة ونشر الرسائل العديدة عن مصر .

ثانياً : استخدام كل الاجناس دون ان تفوض لأي اجنبي كان امرنا ونستودعه اسرارنا لأن الاوربي مهما بدت عليه دلائل الصدق والاخلاص لسدة الامير ولمصر لا يبحث الا عن منفعته الخاصة :

.... استخدام بعض الجرائد الاوربية من فرنسا والمانيا والروسيا وأرى انه يكفي من فرنسا استخدام جريدتين ومن الروسيا كذلك ومن المانيا ثلاث على الاقل ... وأرى ، ان مبلغ ٧٠٠ جنيه يكفي لاستخدام اهم جريدة مدة عام [2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٨ .

ومثل هذا التقرير يوحي بان مصطفى كان يفهم ابعاد وحقيقة مثل هذا التعامل القائم على اساس « الشراء » وليس « الامتناع » ... وانه كان يدرك ان « الاوربي لا يبحث الا عن منفعته الخاصة [1] .

والحقيقه ان مصطفى قد تلقن الدرس سريعاً ... وان المصلحة الاوربية الاستعمارية واحدة وان كانت متناقضة فيما بينها ، وان الدول الاوربية الاستعمارية قد تستخدمه احداها ولكن بهدف الضغط على بريطانيا لتحقيق مصلحة استعمارية اخرى .... وكانت حادثة فاشورة الدرس المر المذاق ثم تلاه الوفاق الانجليزي الفرنسي في عام ١٩٠٤ ليؤكد لمصطفى عدم جدوى الاعتماد على اوربا .

وفي ١٠ مايو ١٩٠٤ يكتب مصطفى كامل رسالة باكية إلى مدام جولييت آدم يقول فيها « ليس في وسعي ان أتعزى امام هذه الاتفاقية الانجليزية الفرنسية المشئومة التي ستجلب اسوأ النتائج على وطننا التعس والخديوي ذي الحظ السيء ...

.. ام مواطني يكرهون اليوم فرنسا اكثر من انجلترا نفسها اقول ذلك رغم اني اعلم ما في هذه الصراحة من قسوة ولكن أليست الصراحة اساس كل مودة وروحها ان لا تدرين مبلغ تعـاظم الانجليز في الوقت الحاجز . انهم يسخرون منـا نحن ذوي العقول الصغيرة الذين اعتمدنا على فرنسا ولهم الحق ان

---

(١) أنور الجندي– المرجع السابق ص ٢٣ .

يسخروا ان موقفي الشخصي يعد من اصعب المواقف واخطرها فان جميع اصدقائي المصريـين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبي اصبحوا اما اصدقاء للانجليز او يائسين مـن الكفاح ... ما اعظم آلامي واحزاني [١] .

واكثر من مرة يؤكد مصطفى كامل « حرصنا الوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين اما انعطافنا او نفورنا من دولة ما فانه لا يؤثر على المبدأ الرئيسي لحياتنا وافعالنا [٢] .

كل ذلك، كان فريد يدرك هذه الحقيقة ، بل ربما ادركها مبكراً وقبل مصطفى بكثير فهو يكتب في مذكراته عن اول مارس ١٨٩١ « سافر وزير فرنسا بمصر إلى بلاده لعدم قبول الحكومة احتجاجه على تعيين المستر سكوت مستشارا للحقانية بدعوى ان تعيينه يضر بحقوق فرنسا بمصر كأنه لأحد منهم فيها حقوق لو كان تعيين بدل هذا المستر مسيو فرنساوي لما فاه الفرنساويون ببنت شفة بل عدا ذلك من الاسباب الداعية لتقسيم مصر. ولا بدع فكل دولة لا تسعى الا في تأييد نفوذها غير ناظرة إلى فائدة البلاد [٣] .

وتمضي سنوات ويجد فريد نفسه مهاجراً . محاصراً بالخصوم وخصوم الخصوم عندما تشتعل الحرب العالمية تقف تركيا والماني

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ١٨٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٣) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٨٠ .

في جانب وانجلترا وفرنسا في جانب آخر ويتعاون فريد بقدر محدود مع الألمان ، مؤملاً في ان يحصل منهم على عون ما ضد الانجليز ويكتب فريد في مذكراته في ٢ سبتمبر ١٩١٥ « وصل مساء الثلاثاء إلى جنيف ماهر بك صدقي آتياً من برلين من قبل الشيخ جاويش ومنصور رفعت طالباً منا السفر إلى برلين للاتفاق على مشروع تأسيس لجنة مصرية هناك تمثل مثل في المخابرات السياسية بمصر خصوصاً عند الكلام في الصلح . وان انور باشا موافق على المشروع ومستعد لدفع ما يلزمه من النقود ... وان المانيا موافقة ايضاً ... فوافقنا على الرأي مبدئياً ووعدنا بالسفر[1]

ومتى رأينا في صفحات سابقة ان تعاوناً ما قد قام بين فريد والالمان إلى درجة بعثت الامل في نفس فريد بامكانية ان تمده المانيا بالسلاح لاشعال ثورة في مصر ...

وتتعمق العلاقة إلى درجة تخيف الانجليز والفرنسيين فيتصل به الفرنسيون ويروي فريد الواقعة في مذكراته عن يوم ١٦ فبراير ١٩١٥ « حضر إلى جنيف المسيو بوسنو احد اعضاء مجلس النواب الفرنسي ووكيل لجنة الامور الخارجية والاستعمارية بدعوى زيارة روشبرون ولكنه طلب مقابلتي وأخذ يحدثني في المسائل الحاضرة ويلومني بلطف على اتفاقنا مع الالمان ضد انجلترا وفرنسا . وانا لو كنا بقينا على الحياد كنا نلنا كل ما نطلب من انجلترا . واسهب في هذا الموضوع فافهمته

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٣٣١ .

بأننا سرنا مع الاتراك ليساعدونا على الخلاص من الاحتلال الانجليزي ، وسرنا مع المانيا لانها حليفة الدولة العثمانية . وكل ذلك لاننا نرى الخلاص في نجاح الفريق الالماني ونستبعد نجاح الفريق الآخر واننا لا نخشى شيئاً زيادة عما خسرناه للآن هو الاستقلال فيما لو هزمت الدولة العلية وحلفاؤها بما ان انجلترا قد وضعت حمايتها على بلادنا بموافقة محالفيها .. »

ثم قال وهل تتفقون مع انجلترا ان وعدتكم بالاستقلال مثل كندا فأجبته اننا لا نثق بوعود انجلترا ولا بضماناتكم [1]

ويبدو ان فريد كان قد فقد الثقة تماماً في امكانية اي اتفاق مع انجلترا وهو يروي في مذكراته عن يوم « ٥ يوليو ١٩١٥ » اجتمعنا وتناقشنا ... وقد تمكنت من الحصول من السيد كامل صراحة ومن يوسف صدقي باشا تلميحاً بانهما لو كانا غير متأكدين من انتصار الألمان لكانا سعيا في الإتفاق مع الانجليز فأجبتهما وساعدني في ذلك علي بك الشمسي وشفيق باشا بأن اي اتفاق مع الانجليز لا يمكن الا ان يكون جنياً على الاعتراف بالحماية والاحتلال . وهذا ما لا يمكن التفكير فيه مطلقاً .

فسألاني وماذا يكون العمل فيما لو هزم الاتراك وانتصر الانجليز ؟ فقلت نجتهد حينذاك في تجهيز الثورة في مصر لا

---

(١) المرجع السابق – ص ٢٠٠ .

الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها ومهما اعطانا الانجليز من الامتيازات (١)

* * *

وهكذا في نهاية المطاف اقترب فريد من الحقيقة الصافية .. « نجتهد حينذاك في تجهيز الثورة في مصر لا الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها »

فاللعب على الحبال الثلاث استنفذ اغراضه ، والنيران الثلاث اصبحت مصوبة بشكل او بآخرإلي صدر الوطن والزعيم ولا بد مما لا بد منه الاعداد للثورة) ...

وكانت الثورة في مصر توشك بالفعل ان تندلع .. ما يؤكد صدق حدس الزعيم وانه برغم منفاه البعيد كان يضع يده تماماً على بغض الوطن .

* * *

---

(١) المرجع السابق – ص ٣٢٠ .

- ٥ -

الموقف

في فترة من تاريخ الامة تصبح الكلمة أداة ، وتصبح سلاحاً ويصبح الموقف طريقاً ينير للجماهير السبيل للحركة .

ومصر التي شاهدناها في الصفحات الاولى من هذا الكتاب في حالة تشبه الاغماء ، سادتها موجة من اليأس القاتل والخضوع المهين في اعقاب الاحتلال البريطاني .

... وفي وقت كان الاستسلام فيه شريعة مفترضه في الجميع والخروج عليه ليس شجاعة وانما تهوراً ... وبعض بقايا الثورة العرابية تتحول إلى نفايات يستوعبها الاحتلال ويحيلها إلى أدوات ... والبعض الآخر يعيش الحيرة والخوف والتمزق ..

في هذا المناخ يكتب واحد من بقايا الثورة العرابيه إلى واحد من بقايا قادتها المنفيين .. « والحالة العمومية على ما تركتها ، غير ان الناس أخذوا في نسيان ما فات من الحوادث وأهوالها وقلت قالتهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، واصبح المادحون للانكليز من القادمين فيهم والعكس ، والكثير يتوقع

انقلاباً اصلياً والله اعلم بما يكون (١)

اما الراسل فهو سعد زغلول واما المرسل اليه فهو محمد عبده

وفي ظل الحيرة والتردد والاستسلام تكون صيحات مصطفى وفريد طريقاً جديداً ، وإنعاشاً للامة المستغرقة في النوم اليائس ، وتحريضاً لها على الحركة ... تكون حجراً يسقط من عل في بحيرة آسفة .

.. « الا أيها اللائمون ، انظروهـا وتأملوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الارض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً واجمل طبيعة ، وأخلد اثاراً ، ، وأغنى تربة وأصفى سماء ، وأعذب ماء ؛ وأدعى للحب والشغف بها ؟ يجيبكم بصوت واحد بأن مصر جنة الدنيا ، وأن شعباً يسكنها ويتوارثها اكرم الشعوب اذا أعزها ،.وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح في حقها واسلم أزمتها للاجنبي . قد يرى السفهاء والظالمون ان الانتساب شرف يطمع الحر فيه اكبر من العمل لاحياء الأمه التي سبقت الامم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ أي رفعة يسعى الشريف اليها اسمى من انهاض شعب كان استاذ الشعوب البشريـة ومربي العالم كله » (٢)

(١) رشيد رضا – تاريخ الأستاذ الامام – ص ١٦٨ .
(٢) محمد صبيح . المرجع السابق – ص ٢٢٠ :

بكل هذا القدر من الحماس الدافق ، والمحبة السخية لمصر تغنى مصطفى بحب الوطن واستطاع ان يوقظ في وجدان الشعب شعلة كانت توشك ان تخبو .

ويقول مصطفى : « من سوء حظ النوع البشري ان المدنية الحاضرة ابطلت الرق في الافراد واعلنته في الشعوب ، واستهجنت مخالفة الذمة والشرف في المعاملات الشخصية وسمحت بها في المعاملات الدولية .. » (١)

وهكذا تعلن « مدرسة الوطنية الراديكالية» وجودها الحديث ثم هي تشق طريقها لترفع اعلام « التطرف » الوطني ، ولتؤكده وتعتبره سبيلاً صحيحاً . بل السبيل الصحيح الوحيد .

يقول فريد : « يأخذ علينا الاعداء والخصوم والسياسيون اننا متطرفون في حب بلادنا ، متهورون في الدفاع عن حقوقها لا نرحم من نعتقد فيه التذبذب ، او نرى فيه عدم الاخلاص ، ويدعون تارة أخرى اننا حزب هياج ... وهم يعلمون – والله اعلم – انهم لكاذبون ، وانه لا تطرف ولا غلو في حب الانسان لبلاده » (٢)

والصبر والشجاعة هما اول مستلزمات موقف كهذا ...

« وأننا نعرف كيف نصبر على المكاره ، ولكننا لا نعرف

---

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق تاريخ الأستاذ الإمام – ص ١٠ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ٢٩٥ .

التسليم في حقوقنا ، ولا التنازل عن مطالبنا » هكذا يؤكد فريد وهو يقول ايضاً « نحن قوم تذرعنا بالصبر على الكوارث واتخذنا الثبات شعاراً لنا لا يلومنا عن غايتنا اضطهاد ولا نتقهقر إلى الوراء مطلقاً » (١) .

والتحدي الكامل والثقه المطلقة في المستقبل هما ايضاً سمتين ضروريتين .. « ليذهب الانجليز كل مذهب ، فان دانت لهم الارض بأقطابها ، وخضعت لأحكامهم مشارق الأرض ومغاربها ، فليتخذوا لي فيها ما شاءوا من الكهوف والاغوار ، وليحيطوني باسوار من الحديد والنار ، فليذهبن الباطل ولو عزت انصاره ، وليدوم الحق وان خفت آثاره » (٢)

هكذا كان عبد العزيز جاويش يتحدث على صفحات جرائد الحزب .

والسهام التي توجه ضد الاحتلال توجه ايضاً وبنفس العنف ضد عملائه ، بحيث اصبحت السهام هذه سبيلاً حقيقياً لردع الكثيرين وتخويفهم من ممالأة الاحتلال .

ولنتأمل بعضاً من هذه السهام :

ضد الشيخ علي يوسف كتب جاويش « ما بلغت الرذيلة ولؤم الطبع من رجل مقدار ما بلغت من صاحب المؤيد » (٣)

(١) محمد علي غريب — المرجع السابق — ص ٧٤ .
(٢) العلم ٢١ — ٨ — ١٩١١ .
(٣) العلم ٢٥ — ٣ — ١٩٠٩ .

وضد رشيد رضا يكتب « ان رشيد ليس داعياً إلى الله بل إلى نفسه وانه يتخذ الدعوة إلى دين الله سبيلاً إلى الشهرة وسلماً إلى الصيت » (١)

وضد المقتم كتب تحت عنوان « لا كرامة لمأجور ، ليخرس المقطم » « ما بال اولئك الغرباء عن جميع الاوطان ، كلما رفع وطني صميم صوته في شأن من شئون وطنه صاحوا بأنكر صوت ناقمين ؟ وما حكوه طاعنين ، وسخروا منه حاقدين ؟ عرفت الأمة هؤلاء الاعداء الذين لا يهنأ لهم عيش الا اذا ضاع لها حق وعرفت صحيفتهم الصفراء بوقاً للاحتلال يصوت فيها فتردد صداه وآلة يديرها فتستدير . ، الا فليخرس المقطم فانه أحقر عند الأمة من ان تلقى له بالاً او تقيم لحماقته وتضليله وزناً » (٢) .

والوطنية .. موقف

موقف ضد الاحتلال .. وموقف ضد عملاء الاحتلال

لكن الموقف الوطني عندما يمتزج بالارستقراطية يصبح نوعاً من الكبرياء .

.. وهكذا تعامل فريد دوماً مع خصومه .

وحتى وهو بين ايديهم كان يعاملهم بهذا القدر من الإباء

(١) الهداية – ابريل ١٩١١ .
(٢) العلم ١٩ – ٢ – ١٩١٠ .

والتعالي الذي يتضمن قدراً كبيراً من الاحتقار ، هكذا شاهدناه في فصل سابق وهو يعامل الخديوي وهكذا تعامل مع الطغاة العثمانيين وهو بين ايديهم في الاستانة ... هارباً من مصر فقيراً ، مطارداً ..

ولنعد إلى مذكرات فريد لنجد فيها حديثاً عن خطبة ألقاها في مسرح الشتاء في ٣ ديسمبر ١٩١٣ بالاستانة .. « وكل مقصدي من هذه الكتابات والخطب تفهيم سعيد حليم باشا الصدر الاعظم بأني لا أخشى تهديداته بالنفي إلى سينوب اذا تكلمت أو أتيت أي عمل » [١]

وهو يملي شروطه قبل ان يقابل الصدر الاعظم فيبلغ انور باشا « سأقابله (أي الصدر الاعظم) يوم الجمعة التالي فليحسن مقابلتي . لاني لا احتمل اقل اهانه وعلى شرط ان اكون حاملا لشارة الحزب الوطني المكتوب عليها مصر للمصريين والتي كان غضب الصدر بسببها .. فوعدني انور باشا بذلك » [٢] .

واذا تأملنا موقفاً هكذا صعب علينا ان نحدد من هو اللاجىء الهارب المطارد ومن هو الصدر الاعظم والغريب ان الصدر الاعظم يخضع لشروط فريد « قابلت الصدر ... فأحسن مقابلتي جداً »

وأيضاً امام المحقق ــ عزيز بك مدير الامن العام بالاستانة

---

(١) محمد صبيح ــ المرجع السابق ــ ص ٢٨٨ .
(٢) المرجع السابق ــ ص ٣١٩ .

يتخذ فريد الزعيم الاعزل نفس الموقف المتشدد .. ويقول «حضر
عزيز وقعد امام المكتب وأخرج منه دوسيهاً غليظاً من درج
المكتب فجلست امامه بلا اقل احترام بل تعمدت اظهار الكبر
والعظمة وقلعت طربوشي ووضعته على كرسي والبالطو على
كرسي آخر . ووضعت احدى رجلي على الأخرى ثم قلت له
بكل فظاظة : اريد ان اعرف قبل كل شيء هل أنت تسألني
بصفتك مدير الامنية العمومية . وانا أمامك بصفة متهم او أنت
تكلمني بصفتك كمندوب من طلعت بك وزير الداخلية
للاستعلام مني عن بعض نقط يضيق وقته عن ان يسألني عنها .
لانك لو اعتبرتني متهماً فلا اجيبك عن شيء مطلقاً ولا ادافع
عن نفسي بل أقول لك كما قلت للانجليز في مصر افعلوا ما
شئتم فبيدكم القوة استعملوها كما تريدون . وأما اذا كان الأمر
أمر استعلام بسيط فأجيبك على كل ما تريد . فقال بآدابهم
التركية المبنية على الرياء والنفاق : استغفر الله أفندم نحن اخوان
وحاشا ان نتهمك اننا نريد ان نستعلم منك في بعض النقط» [1].

* * *

ولكي تتخذ موقفاً كهذا .. يجب الا تكون بحاجة إلى اي
قدر من المساومة مع خصومك ... يجب ان تواجههم كما يواجه
«الصوفي» مباهج الحياة ، إذ يواجهها بالرفض المطلق . وهكذا
كان مصطفى ، وكذلك كان فريد .

---

(١) المصور – ١٤ ... – ١٩٦٩ – فتحي رضوان ...

قابل رئيس الوزراء البريطاني كامبل بانرمان مصطفى كامل وبشجاعة واجه الشاب المتقد حماساً رئيس وزراء دولة كان الارتجاف امام اصغر ممثليها في مصر هو سنة الحياة بالنسبة للكثيرين . قال مصطفى كامل لبانرمان «اسمح لي ان اقول بأن اللورد كرومر كان يصرف الأمور في البلاد لصالح انجلترا وحدها . وانه يحكم مصر منذ ١١ عاماً بمساعدة وزارة مصطفى فهمي باشا صديق انجلترا ... وهذه الوزارة مكروهة من المصريين المخلصين لوطنهم وللعدالة » فقال له الرئيس البريطاني « هل تقبل تكوين نظارة بمعرفتك ؟ » ويرد مصطفى كامل على الفور « ان وطنيتي تفرض علي رفض كل مركز في الحكومة طالما ظل الاحتلال في البلاد » [١] .

وفريد هو ايضاً رفض الوزارة اكثر من مرة .. في ١٩١٠ عرض عليه محمد سعيد باشا ان يشترك في الوزارة فقال مستنكراً « كيف تطلب مني ان اشترك في حكم البلاد في ظل الاحتلال وانا أجاهد ضد الاحتلال ؟ وكيف يتفق النقيضان » [٢] .

وفي اكتوبر ١٩١٠ كان فريد في باريس حيث قابله رسول قدم خصيصاً من لندن واخبره انه مكلف بان يعرض عليه احدى الوزارات وان من كلفه بذلك يعلم حرج مركزه المالي وانه مستعد لاداء كل ما يلزم لتسوية هذا المركز وحفظ

---

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ٢٢٢ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ٤٣٩ .

املاكه فرفض فريد باباء قائلاً « ان ضياع ثروتي لا يؤثر على مبادئي ، واني ارفض اي مركز في الحكومة ما دام الانجليز في مصر »[1] لكن الانجليز لا يملون .. فالرسول يتبعه إلى الاستانة محاولاً ان ينتهز فرصة تقديم فريد إلى المحاكمة بتهمة كتابة مقدمة ديوان « وطنيّي » فيعرض عليه نفس العرض السخي .. ويضيف عليه الوزارة بدلاً من السجن . ويرفض فريد .... ويدهش الرسول ويسأل : « هل حقاً لم تزل مصراً على رأيك ؟ » فأجابه فريد» «حتى مماتي. وهاأنا ذاهب إلى مصر لاحبس[2] .

وكما رفض المنصب في مصر المحتلة ، رفضه لدى العثمانيين فعندما عرضت عليه السلطات العثمانية منصب عميد كلية الحقوق بالاستانة » رفض وهو في اشد الحاجة إلى مورد رزق مضمون «[3] .

وحتى وهو في السجن ، في قبضة اعدائه ، جابههم كعادته بموقفه المتعالي المترفع عن أية مساومة « زاره في زنزانته كولس باشا مدير مصلحة السجون وقال له « اني اسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك » فأجابه « ان ما تطلبه مستحيل » فقال كولس متراجعاً « اني لا اطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك » فرفض ، فقال له: « انت تريد اذن قضاء الستة شهور في السجن » . ورد فريد « وأزيد عليها يوماً ان اردتم »

---

(١) الهلال العثماني – ٢٤ – ٥ – ١٩١٢ محمد فريد (مقال) .
(٢) الهلال العثماني – ٢٤ – ٥ – ١٩١٢ محمد فريد (مقال) .
(٣) محمد علي غريب – المرجع السابق – ص ٧٣ .

وبينما فريد في السجن نشر لطفي السيد اكثر من مقال يطالب فيه بالعفو عنه فقال فريد لزائريه «ارجو أن تبلغوا لطفي بك السيد ان يتحاشى طرق هذا الموضوع فان هذا ما لا اقبله ولا ارغب فيه » . ثم زاره في السجن الدكتور عثمان غالب موفداً من قبل الخديوي وقال له « ان الخديوي مستعد للعفو عنه اذا قدم طلباً بذلك فقال فريد بإباء « انا لا اطلب العفو ، ولا اسمح لأحد من عائلتي ان يطلبه نيابة عني . واذا صدر العفو فلا أقبله» [1].

هكذا لقن فريد الجميع درساً في الإباء الوطني ، والشجاعة في مجابهة الخصوم وعندما كان فريد في المنفى أشاع عنه بعض خصومه انه كان قد ارسل قبل سفره من مصر برقية إلى السيد ادوارد جراي وزير الخارجية البريطانية يطلب فيها التدخل لانصافه ، فنفى فريد ذلك نفياً قاطعاً وارسل التكذيب إلى جريدة « جون ترك » التي كانت تصدر بالفرنسية في الاستانة وقال فيه « اني لو حكم علي بالموت وكانت حياتي معلقة على كلمة تخرج من فم وزير انجليزي لفضلت ألف ميتة على مخاطبة هذا الوزير في شأني فلقد رفضت طلب العفو من الخديو وهو حاكم البلاد الشرعي عندما حكم علي في العام الماضي بالسجن ستة أشهر وفضلت البقاء مسجوناً على امضاء طلب العفو » [2]

انه منهج متكامل ... يمتد ليصل إلى رفض مبدأ التوظف

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ٢٨٤ .
(٢) المرجع السابق – ص ٥٢٥ .

في بلد يخضع للمحتل وحكومة يديرها الانجليز او عملاؤهم ..

ومنذ البداية يكتب فريد في مذكراته (١٤ ديسمبر ١٨٩١) ينتقد الوزراء وكبار الموظفين الذين يقبلون العمل في ظل الاحتلال ويقول انهم « لو كانوا من ارباب الشرف والنخوه لامتنعوا عن قبول الوظائف العالية بهذه الحالة ، لكن الكل يغار على ماهيته وابهته اكثر مما يغار على اسمه واستقلال وطنه ، وكيف يكون غير ذلك وهم الذين ساعدوا الانجليز على وطء بلادهم ويساعدونهم الآن على إكمال ضمها لاملاكهم (١) .

وتمضي السنون لتؤكد هذا الموقف عند فريد فيعود إلى الاشارة اليه في مذكراته (١٥ مايو ١٨٩٧) قائلاً « في النصف الاول من هذا الشهر حدثت عدة مسائل مهمه منها ما يدل على زيادة الاحساسات الوطنية عند المصريين وبالاخص الغير مستخدمين بالحكومة ، ومنها ما يدل على انحطاط هذه العواطف في الموظفين (٢) .

وحتى بعد المنفى « نجد فريد يتوجه في يناير ١٩١٤ إلى جمعية الطلبة المصريين في جنيف المسماة « ابو الهول » فيلقي خطاباً يحثهم فيه على « الثبات على المبادىء بعد اتمام الدراسة والعودة إلى البلاد ناصحاً لهم بعدم الاغترار بوظائف الحكومة ذات المرتبات الضخمة (٣) .

---

(١) رؤوف عباس – المرجع السابق – ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩ .

(٣) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٢٧٩ .

والاحتلال هو العدو الاول والاخير ، وهو محور كل المواقف .. العداء والصداقة والتحالف .. ويمكن القول ان الميزة الاساسية للحزب الوطني هي انه قد حدد لنفسه استراتيجية واضحة لا يحيد عنها .. الجلاء التام ، او بالدقة العداء التام للانجليز ولكل من يعاونهم او يهادنهم او يفكر في التهاون معهم.

ومنذ البدايات الاولى كان فريد واضحاً .. والصفحات الاولى من القسم الاول من مذكراته توضح ذلك بصورة قاطعة ..

* « لم يحصل في شهر سبتمبر سنة ١٨٩١ شيء يذكــر لتغيب الرؤساء الانجليز بأوربا »

* « اهم ما حدث في شهر مايو ١٨٩١ استعفاء الوزارة الرياضية .. وخلفه على منصب الاحكام مصطفى باشا فهمي الذي كان ناظراً اسماً للحربية ، وكذلك سيكون ناظر نظار اسماً لا يأتي الا ما يلقنه يارنج وزير انكلترا بمصر وان شئت فقل خديويها الاعظم » (١)

* « في ٨ منه (اكتوبر ١٨٩٢) صدر امر نظارة المعارف برفت المسيو مونتان الفرنسواي مفتش اللغة الفرنساوية بالنظارة المذكورة ولم يكن رفته الا لاضعاف اللغة الفرنساوية وتعزيز العنصر الانجليزي في المدارس وهي الغاية التي يسعى وراءها

(١) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ٨٦ .

ارتين باشا الارمني اللئيم أجير الانكليز على خراب المعارف بمصر »(١).

* « في يوم السبت ٢٨ منه (سبتمبر ١٨٩٥) حضر إلى الاسكندرية اللورد كرومر من بلاد الانكليز ولا ندري ما في حقيبته من المصائب لمصر »(٢)

لكن العداء للاحتلال ليس مجرد كلمات تقال .. بل هي عمل ونضال ومجابهة هكذا اكد مصطفى كامل منذ البداية ايضاً « لا تظنوا ايها الاخوان انكم تكونون ابرياء من اثم ضياع مصر اذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا على اخراج الاجنبي من ديارها . قد يظن الكثيرون في مصر ان الذي لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه برىء من جريمة مصائبه ، غير مسئول عن الاخطار التي تتساقط عليه ، كلا ، ان الذي يرى النار بعينيه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل على اطفائها انما هو شريك لمن أحرقها »(٣) .

واذا كان الجلاء هو المطلب الاول ، وهو المحور والمنطلق لكل المواقف فان الحزب الوطني كان على استعداد للنضال من اجل عدد من « الاصلاحات » كهدفاً مرحلياً يستهدف استجماع قوى الشعب استعداداً للهجوم العام ، وعندما اطاح

(١) المرجع السابق – ص ١٣٣ .
(٢) فتحي رضوان – المرجع السابق ص ٥٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

نضال الحزب بالطاغيه كرومر وأتى جورست الذي حاول ان يبدو ودوداً وراغباً في التفاهم كان على الحزب ان يبدي قدراً من المرونة .. لكي لا يتهم بالتشدد المطلق ، ولكي يوازن بين امكانيات استشراء الوفاق بين المعتمد الودود والخديوي الراغب في التهاون .. ولكي يسد الطريق على تصاعد موجة « الاعتدال » بين الساسة المصريين ...

وفي ٢٦ ابريل نشرت الفيجارو الفرنسية مقالاً لمصطفى كامل يحدد فيه عدداً من « الاصلاحات السريعة » التي يرى الحزب ضرورة اجرائها .. ولم يتحدث مصطفى عن الجلاء التام ... واكتفى بما يلي :

أ — تكوين وزارة من العناصر القوية التي لا تخشى ايضاح اخطاء المعتمد البريطاني في سياسته حتى يصلحها .

ب — تحديد دور المستشارين الانجليز في إسداء آرائهم دون اعتبارها أوامر يجب الأخذ بها .

ج — انشاء برلمان يهيمن على التعليم والقضاء وادارة البلاد وتكون الحكومة مسئولة امامه .

د — تغيير النظام القائم الآن في نظارة المعارف العمومية وذلك بنشر الدراسات العليا واحترام اللغة العربية وتعميم المجانية وايضاً البعثات الدراسية .

ه — احلال الموظفين المصريين محل الاجانب تدريجياً حتى

تستطيع مصر ادارة امورها بنفسها ، وتعديل الامتيازات [1] .

ولعل هذا البرنامج لم يكن تراجعاً من جانب الحزب بقدر ما كان سداً لطريق التراجع امام الآخرين .. فذهاب كرومر ومجيء جورست كان بداية انتعاش لسياسة « الاعتدال » والتهاون فالخديوي وجد في التصالح مع جورست مرفأ اميناً ، والساسة الآخرون استكانوا لسياسة الوفاق هذه .. فهل كان مصطفى يحدد لهم خطوط التراجع ، ومداه ؟ هذا هو الأرجح .

اما بالنسبة له هو ولحزبه فقد كانوا يستمسكون بالموقف الحاسم « الجلاء التام » والموقف الاكثر حسماً « لا مفاوضة الا بعد الجلاء »

وفي ١٥ اغسطس ١٩٠٨ يقف محمد فريد في جمع حاشد من عشرة آلاف شخص ليعلن في وضوح « يقول لنا خصومنا السياسيون كيف نطلب الجلاء من أمة عزيزة الجانب كثيرة الجيوش والاساطيل . ان هذا المطلب يعد تهوراً بل جنوناً إذا لم يكن لنا اساطيل تعادل الاساطيل الانجليزية وجيوش تضارع جيوشها ، اي اننا لا نطلب الجلاء أبد الآبدين ، حيث انه من الجنون الحقيقي ان نعتقد ان مصر يكون لها يوماً من الأيام هذه القوة الهائلة فكأنهم يقولون للمصريين اقبلوا الاحتلال شاكرين وامتثلوا لحكم القوة صاغرين فان الحق في جانبها دائماً ولذلك

---

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ٢٤٧ .

ترك بعضهم المطالبة بالجلاء ، وسموا هذا التحول « اعتدالاً » في المبدأ وما هو الا خيانة للوطن وبنيه »

ويمضي فريد منددا بهؤلاء المعتدلين قائلاً « ثم ترقت هذه الفكرة المضرة ، فكرة السكوت عن الجلاء وعدم المطالبة به تصريحاً ، حتى ان بعض الاحزاب لم يذكره في برنامجه بل اكتفى بالتذكير بالوعود ، فاذا ما اعترض عليه قال ان الجلاء من ضمن هاتيك الوعود التي يطلب الوفاء بها ، واذا لامه اصدقاؤه الانكليز قال : اني لا اطلب الجلاء بل وضعت هذه الجملة المبهمة حتى لا يرميني المصريون بالخيانة فهكذا السياسة وهكذا الدهاء ...

وكذلك اعلن هنا اننا براء من كل شخص او جماعة يقولون بغير الجلاء ، او يرضون بالاحتلال ، أو يسكتون عنه مرضاة لجماعة من مجلس النواب الانجليزي يغررون بنا ويوهموننا بالمساعدة على نيل الاصلاح ان نحن قبلنا الاحتلال او سكتنا عنه [(١)] .

وفريد يستنكر ان توجه اية مطالبة للانجليز ، او ان تقام معهم اية علاقة « اذ ان مركز انجلترا في مصر غير شرعي فلا يجوز ان يتوجه المصريون اليها بما يريدون » [(٢)]

ولهذا فان فريد وبرغم خصومته الشديدة مع الخديوي عاد

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ٨٧ .
(٢) محمد علي غريب – المرجع السابق – ص ١٨ .

للتقارب معه .. وقدم اليه عرائض التوقيعات التي جمعها الحزب للمطالبة بالدستور ..

وقد اعرب فريد عن غضبه وغيظه من هؤلاء الذين حاولوا التودد إلى الاحتلال ورجاله فعندما اقام البعض حفل وداع لكرومر يكتب فريد « اما نحن فيوجد من بيننا من يقوم بمجاملة العدو القاهر ، وتقبيل اليد التي نضرب بها ، فيقوم منا نفر — ولو انه قليل — للاحتفال بوداع عميد الدولة المحتلة اي الرجل الذي سعى لهدم استقلالنا وجعل بلادنا مستعمرة انجليزية .. »

ان مثل هذا الحفل هو في رأي فريد « مسبة لارواح شهداء دنشواي ولمسجونيها الذين ما يزالون يرسفون في القيود والاغلال ضحية لسياسة الفرد ضد رغائب الامة » (١) .

ويظل فريد على موقفه من الانجليز .. تتغير الظروف ، والتوازنات ، وتخلق الحرب العالمية الاولى واقعاً جديداً ، وهو نفسه ينتقل من مرحلة رئيس حزب إلى زعيم شعب ، ثم إلى زعيم في المنفى .. والحزب يصعد ثم يهبط ، كل شيء يتغير .. التحالفات وموازين القوى ويبقى الموقف ثابتاً « الجلاء التام عن وادي النيل « و.. » لا مفاوضة الا بعد الجلاء » .

ولقد لخص فريد كل موقفه في عباره موجزه « اننا نريد ان نكون اصحاب الشأن في بلادنا كما نروم التنعم بدستور تضع احكامه جمعية منتخبة من الامة ونريد جلاء الانجليز » (٢) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) اللوفيل — ٢٧ — ٥ — ١٩١٠ .

كان هذا في مايو ١٩١٠ .

واستمر فريد على موقفه حتّى النهاية .. تغير الجميع الا هو .. البعض تراجع ، والبعض انتابه الهدوء والاعتدال ، والبعض خان وبقي هو وحيداً يواجه الاعصار شامخاً في ثبات ، مصمماً في اصرار .

وتمتليء الصفحات الاخيرة من مذكراته بكلمات ومواقف تستحق التأمل خصوصاً اذا ما وضعناها في اطارها التاريخي .. وتصورنا الرجل المهيب ، منفياً فقيراً يقاوم الغربه والمرض والفقر ، ويرفض المساومة اي مساومة ، ويصمم على موقفه الصحيح ، ويصمم عليه كاملاً ..

في ١٦منه (ديسمبر ١٩١٥) قابلت محمد علي محمد فأخذ ينتقد اجتماعنا الذي عقدناه بجنيف ويقول اننا اردنا بذلك الاحتجاج على الدوله مع اننا لم نأت شيئاً . وقال في الختام « هل تظنون ان الدولة تضحي عشرات الآلاف من رجالها لفتح مصر ، ثم تسلمها لكم غنيمة باردة ؟ » وكانت عباراته كلها كأنها صادرة عن تركي لا عن مصري من الحزب الوطني الذي يدافع ويطالب باستقلال مصر .

فأظهرت له كدري من هذه العبارة وقلت له : اني لا أريد التكلم في هذا الموضوع فقال لي بكل وقاحة : اني حر في ان اتكلم في اي موضوع أريد ... فأجبته قائلاً : وأنا كذلك

حر في أن لا اسمع مثل هذه العبارات . ثم انصرفت ومن عهدها لم اره ثانياً » .

هكذا كان الزعيم يعاني ليس فقط من الخلافات ، وانما من التمردفجاويش يستقطب حوله الكثيرين ممن يسميهم فريد «طلاب الوظائف الذين يريدون تسليم مصر للاتراك لنوال اغراضهم »[١]

ويبدو الموقف اكثر صعوبه عندما يمتد التمرد إلى عمق النواة الاساسية للحزب ، فاذا كان جاويش طارىء او وافد على قيادة الحزب ، فان « محمد فؤاد سليم » نجل لطيف سليم باشا الحجازي والذي كتب اليه مصطفى كامل يوماً ما يقول له : « انت أملي الوحيد الباقي لي في هذه الحياة » محمد فؤاد سليم هذا ينحاز للاتراك ويعين سفيراً للآستانة في برن بسويسرا ليكون كما قال فريد « مراقباً ومعاكساً لنا ولاعمالنا في هذه البلاد الحرة

ويبقى فريد صامداً رغم ذلك كله مصمماً على موقفه . وذات يوم سأله شخص ألست صديق فؤاد سليم السفير فقال « لا اني كنت صديقاً لشخص اسمه فؤاد سليم بك ، مصري كان معنا في لجنة الحزب ، وكان كاتم أسرار لجنته الادارية . ولكن هذا الشاب الوطني توفي في مصر من نحو خمس سنوات ودفن بها . اما فؤاد الجديد سفير الدولة فلا أعرفه ولا اريد ان يكون لي معه أي علاقة [٢] .

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٣٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٦٨ .

يتراجع الجميع ، وتبقى الراية مرفوعة .. وعالية

ويوجه فريد نداءاً إلى الدول المتحاربة والمحايدة يقول فيه « ان الحزب الوطني المصري الذي كان ولا يزال على مبدئه مصر للمصريين ، والذي وقف نفسه للدفاع عن وطنه العزيز ضد اي اعتداء او تدخل اجنبي تحت اي اسم ، او بأية صورة ، يخاطب اليوم بهذه المذكره كل الحكومات بلا استثناء حتى انجلترا وحلفاءها تاركاً العواطف والميول جانباً متبعاً السياسة العملية الحقه . اننا نريد ان نبين ان الحاجة إلى السلم العام وإلى العدل وإلى الحق ، تنصح كل الحكومات ان تساعدنا على تحرير مصر من الاحتلال الانجليزي الذي تحول ظلماً وعدواناً إلى حماية في بدء ديسمبر ١٩١٨ » .

ويمضي النداء « نحن لا نجهر بهذا النداء اعتماداً على المبادىء الحرة فحسب ولكننا نعتمد من جهه أخرى على مصلحة السلام العام وبقاء تجارة العالم وضمان النقل في قناة السويس ، فان هذه الامور تتطلب حرية مصر واستقلال وادي النيل » [١]

وفريد باصراره على مبادئه يكتشف من خلال المعاناة كيف ان « الاستعمار ملة واحدة » وان الدول الاستعمارية عندما تتقرب منه أو من حركته فانما تفعل ذلك سعياً وراء مصالحها الاستعمارية وانها تقف ضد الوجود البريطاني في مصر لا لتمنح اهلها استقلالهم وانما لتفرض هي نفوذها .. ولهذا فانه يبتعد عن

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ٤٢٨ .

اوربا الحكومات .. ويتجه نحو اروبا الأخرى.. اوربا الشعوب والقوى التقدمية والديمقراطية .

والحقيقة ان علاقة الحزب الوطني بالقوى التقدمية في اوربا لم تكن حديثة ، فمنذ ايام مصطفى كامل كانت العلاقة مع الثوري الروسي تيودور روزنشتين ، وقد إلتقى مصطفى بروزنشتين في لندن حيث اتفق معه على الحضور إلى مصر لتحرير الجريدة الانجليزية « ذي اجيبسيان ستاندارد » التي يصدرها الحزب .. وقد بقي روزنشتين في رحاب الحزب الوطني فترة طويلة من الوقت الف فيها كتابه الشهير « دمار مصر »[1] .

والملفت للنظر هو ان روزنشتين لم يكن مجرد ثائر بل كان احد كوادر الحزب البلشفي « واعتباراً من عام ١٩٠١ انخرط روزنشتين في صفوف حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، وفضح السياسة الاستعمارية للامبريالية البريطانية . وبعد البحث والتنقيب طوال سنين أصدر روزنشتين في ١٩١٠ كتابه الشهير دمار مصر .. وتتلخص اهمية كتاب روزنشتين بانه قدم لأول مرة في الدراسات العالمية تحليلاً عميقاً لطرق وأساليب خنق الامبريالية لمصر سياسياً واقتصادياً . وبالاستناد إلى مثال مصر اوضح روزنشتين خصائص التوسع الاستعماري وابتزاز الارباح في عصر الامبرياليه . وقد اصدر الكاتب الطبعة

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع د . رفعت السعيد – تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ – ١٩٢٥ – الطبعة الثالثة ص ١٦٣ .

الروسية لكتابه في عام ١٩٢٥ » [١]

بل ان علي احمد شكري مترجم كتاب روزنشتين إلى العربية يورد في مقدمته للكتاب انه تعرف على روزنشتين خلال اقامته في مصر ويضيف « على اثر شبوب ثورة البلاشفة عاد المسيو روزنشتين إلى روسيا حيث اختاره لينين سكرتيراً خاصاً له . ثم عينته الحكومة الروسية فيما بعد وزيراً مفوضاً لها في طهران » [٢] .

لكن هذه العلاقة على المستوى الفردي ، لا تلبث ان تتطور على يد فريد لتصبح علاقة عامة ومستمرة ومتطورة مع القوى الديمقراطية والاشتراكية في اروبا ..

ففي ١٩١٠ حضر فريد « المؤتمر الثامن عشر للسلام ومنع الحرب بين بني الانسان باستكهولم » . وكان المؤتمر كما يقول الرافعي « مؤلفاً من مندوبي جمعيات السلام في العالم . واعضاؤه من صفوة العلماء في مختلف البلدان . تختارهم جمعيات السلام في كل أمه ومن اغراضه البحث فيما يمنع الحروب وسفك الدماء بين الدول ومنع استعباد الامم لبعضها البعض ، وابطال الفتح ، وجعل كل أمة في العالم حرة تحكم نفسها بنفسها واتخاذ التحكيم اداة لفض كل نزاع بين دولة واخرى ، او عدوان

---

(١) بوفداريفسكي – سياستان ازاء العالم العربي ترجمة خيري الضامن – دار التقدم ، موسكو (١٩٧٥) ص ٢٧٠ .

(٢) روزنشتين – دمار مصر – ترجمة أحمد شكري(١٩٢٥) صفحة ب .

امة قوية على امة ضعيفة وكان فريد المصري الوحيد ، بل الشرقي الوحيد الذي حضر المؤتمر »[1] .

ويواصل فريد اهتمامه بحركة السلام العالمية وتعزيز علاقات الحزب بها فيحضر مؤتمر السلام بجنيف عام ١٩١٢ ثم مؤتمر السلام في لاهاي عام ١٩١٣ ثم مؤتمر الاجناس المضطهدة في لندن (١٩١٤) ومؤتمر الاجناس المضطهده في لوزان (١٩١٦) ويوجه رسائل عدة إلى كل المؤتمرات الاشتراكية والتقدمية التي عقدت في اروبا في ذلك الحين .

بل ان فريد يطور هذه العلاقة ايضاً فهو لا يريد لها ان تظل مبنية على توجهه الشخصي وانما يحاول لها ان تكتسب قاعدة جماهيرية في مصر ... فيؤسس « جمعية السلام العام بوادي النيل » وقد أيد الدعوة كثير من رجالات مصر وتألفت هذه الجمعيه قبيل الحكم على فريد وتم تأليفها وهو في السجن وانتخب رئيساً لها . ثم قررت الاشتراك في مؤتمر السلام الذي كان مزمعاً انعقاده بروما في اكتوبر ١٩١١[2] . وتأكيداً وتعزيزاً لهذه العلاقات دعا فريد ممثلي الاحزاب الاشتراكية الاوروبية إلى « المؤتمر المصري » الذي عقد في بروكسل عام ١٩١٠ » .

وقد كان مقرراً ان يعقد هذا المؤتمر في باريس لكن الحكومة الفرنسية منعته بناء على تدخل الانجليز . والحقيقة ان

---

(١) عبد الراحمن الرافعي — المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٢) المرجع السابق — ص ٢٦١ .

هذا المؤتمر كان يمثل قمة الصعود بالنسبة للحزب الوطني ففي إطاره ظهر الحزب متماسكاً وممسكاً تماماً بزمام الامور ..... ومدركاً لمشكلات مصر وقادراً على أن يتفهمها ويقدم حلولاً لها ..

وكان المؤتمر بمثابة تجمع وطني او جبهة وطنية تلتف حول الراية العملاقة التي ازدادت تألقاً بموقفها الوطني الراديكالي وبتحالفها مع قوى الاشتراكية الاروبية .

وكان فريد قد وجه رسالة إلى كل القوى السياسية الوطنية في مصر يدعوها إلى الاسهام في المؤتمر جاء فيها « فاليك ايتها الامه أسوق الحديث، واطلب من كل مَن يقدر من ابنائك على الحضور إلى مؤتمرنا التعجيل بالسفر، ومن عاقتهم اشغالهم أو خشوا غضب الحكومه عليهم .. فليرسلوا ابناءهم . لتعلم أوربا اننا شعب يستحق الحرية حقيقة .. انفضوا عنكم هذا الضعف ، واظهروا فكركم بكل شجاعه واشتركوا في المؤتمر الوطني حتى تمثل فيه جميع طبقات الامة ليعلم العالم اننا امة حية لا تقبل الاحتلال الاجنبي ولا نرضى بسلطة الحكومة المطلقة » [1] .

وقد حضر المؤتمر ممثلون للقوى والاحزاب الاشتراكية والتقدمية في فرنسا وبريطانيا والمانيا والمجر وايطاليا والنرويج وروسيا ورومانيا والسويد وتركيا والهند ...

وقد تولى رئاسة شرف المؤتمر مستر بلنت السياسي الانجليزي

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

الشهير وكيرهاردي زعيم حزب العمال البريطاني وأوجانيور عضو مجلس النواب الفرنسي والسنيور دجوبرناتي عضو مجلس الشيوخ الايطالي (١) .

ومن فوق منصة المؤتمر وقف « بلنت » المفكر البريطاني ليقول للمصريين « احذروا منا ، فاننا لا نريد لكم شيئاً من الخير لن تنالوا منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية ، وما دمنا في مصر فالغرض الذي نسعى اليه هو مد أجل البقاء فيها وهو ان نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية .. لم يبق لكم عذراً اذا انتم انخدعتم في نياتنا بعد ان وضح الامر فيها وضوحاً تاماً واحذروا ان تنساقوا إلى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها » (٢) .

وفي جلسه ٢٤ سبتمبر قال المسيو جوستاف روانييه نائب باريس « اني آسف كثيراً لما فعلته الحكومة الفرنسية باعتباري اشتراكي اولاً وفرنسي ثانياً .. » ومضى روانييه قائلاً « لا سلام ما دام في الوجود إستعباد ذلك ان كلمتي سلام واستعباد لا تلتقيان هذا ما اقوله لكم باعتباري فرنسي ثم اضيف على ذلك باعتباري اشتراكي .. بانني اتمنى تحرير الامه المصريه تحريراً كاملاً وقريباً ونهائياً » (٣) .

---

(١) Oeuvres du Congrès National Egyptien, tenu à Bruxelles 1910 — (Bruges, Belgique) p.p. 10.

(٢) IBID; p.p. 78.

(٣) IBID; p.p. 43.

اما كير هاردي زعيم حزب العمال البريطاني واحد رؤساء المؤتمر فقد كان اكثر حماسة من الآخرين لقد إنتقد الحــزب الوطني لانه يتقيد بالوسائل السلمية ودعا المصريين « إلى العمل لجعل الحركة الوطنية حركة ثورية فانا اعتقد ان انجلترا لن تجيب مطالب مصر بغير القوة .. انهم يضطهدونكم فلا تيأسوا لان الحرية عزيزة وثمنها غال .. ان اعداءكم لا يتكلمون بلسان العدالة وانما هم ينطقون بلسان المال فقط ، فلا تتراجعوا وواصلوا معركتكم فساعة النصر آتيه حتماً » [1] .

ان وثائق هذا المؤتمر تضم العديد من التقارير البالغة الاهمية والتي تستحق دراسة متأينه والتي تستحق قبل هذا وذاك ان تترجم إلى اللغة العربية ..

.. والمهم ان هذا المؤتمر كان نقطة انطلاق لمحمد فريد والحزب الوطني من إسار اللعب على حبال التناقضات بين الخديوي والاحتلال واوربا الاستعمارية والعثمانيين إلى الآفاق الرحبة للحركة الجماهيرية الاوربية وللحركة الاشتراكية الاوربية

ولعله من المفيد والمثير ان نشير هنا إلى ان الاهتمام كان متبادلاً ، فبقدر ما أراد فريد توثيق علاقاته بالحركة الاشتراكية العالمية ، بقدر ما اهتمت هذه الحركة بجهود الحزب الوطني ، وبمراجعة « دفاتر حول الامبريالية » وهي الكراسات التي جمع فيها لينين مقتبسات عديدة من كتب مختلفة إعداداً لكتابه

(١) IBID; p.p. 21.

« الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية نجد ان لينين قد نسخ الكثير من الدراسات والمناقشات التي دارت في هذا المؤتمر وانه قد ركز بشكل خاص على كلمة كيتل عضو البرلمان البريطاني والذي تحدث إلى المؤتمر عن الوحدة الاخوية بين مصر وايرلندا [١] » .

وقد اقام فريد ايضاً علاقة خاصة مع الحزب الاشتراكي الفرنسي ونشر عدداً من المقالات في جريدة « الاومانيتيه » [٢] .

وإلى المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي عقد في اكتوبر ١٩١٧ في استكهولم وجه فريد مذكرة تقول « ان حرية الشعوب لا تنتقل ولا تفقد بمضي المدة ولا تستطيع الدول ان تتصرف فيها بمعاهدات كما تتصرف في السلع واني اقرر ان اية أمة لا تستطيع ان تتصرف في نفسها ولا في وطنها تصرفاً يضر بحقوقها لان الوطن ليس ملكاً لجيل من الاجيال . « بل هو ملك للاجيال الماضية والمستقبلة » [٣]

.. وهكذا ورويداً رويداً يقترب فريد من معسكر الاصدقاء الحقيقيين .. ورويداً رويداً يكتشف فريد العلاقة الوثيقة بين الرأسمالية وبين الاستعمار . فتغيرت لهجة بياناته الاخيرة ، وتتغير أيضاً دفة تحالفاته ... فيكون المرفأ الاخير الذي يرسو عليه القارب المليء بالعذاب والمعاناة والحب الدافق للوطـــن

---

(١) بوندرافسكي – المرجع السابق ص ٢٦٩ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ٢٢٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ .

والشعب ، والرفض الصارم للتهاون او المساومة هو مرفأ الحركة الاشتراكية والقوى التقدمية في اوربا ...

ويوجه فريد نداءاً إلى الرأي العام العالمي ... لا يكون الجديد فيه مجرد توجهه إلى الرأي العام وانما الجديد هو تلك العبارات والمواقف المتألقة ضد الاستعمار وضد رأس المال .. « ان الاستعمار واصحاب رؤوس الاموال الذين يعملون على استنزاف ثروة الامم غير الاوربية . وامتصاص دمائها النقية لمصلحتهم الذاتية ، لا يريدون ان يعترفوا لأمم كبيرة متجانسة غنية كمصر والهند وشمال افريقية بنفس الحقوق التي يعترفون بها لبلجيكا الصغيرة التي ما زالت ايديها ملطخة بدم أهالي الكونجو وما ارتكب ضدهم من الوحشية » (١) .

واذ يحضر ممثلو الدولة الاشتراكية الاولى (الاتحاد السوفيتي) مؤتمر برست – ليتوفسك للصلح يوجه محمد فريد رسالة إلى المؤتمر يقول فيها « بعد اسابيع قليلة من النداء التاريخي الذي وجهه لينين إلى جميع الامم يتشرف اعضاء الحزب الوطني المصري المجتمعون في برلين بأن يلفتوا انظار المؤتمر إلى ضرورة تحرير مصر على اساس من مبدأ حق تقرير المصير الذي اقرته جميع الدول .. وقد اعلن السوفيت تمسكهم بهذا المبدأ اذ وقعوا عليه في بطرسبرج ... ان مصر لتؤمن بأن مؤتمركم

---

(١) المصور – ١٤ – ١١ – ١٩٦٩ صبري أبو المجد مقال : الحركة الوطنيه بقيادة محمد فريد .

بتصميمه على ان يضع نهاية للحرب وان يمنع اي تكرار لهذه المذبحة المروعة سوف يعترف بحقوقها الطبيعية التي لا تنازع [١] وارفق فريد مع رسالته مذكرة تفصيلية اكد فيها « ان المسألة المصرية ليست مسألة عثمانية ، وانما هي مسألة دولية وطالب بحق الأمة المصرية في ان تقرر بطريق الاقتراع العام مصيرها ورغبتها في الطريقة التي تحكم نفسها بها ، على ان يسبق الاقتراع جلاء الجيش الانجليزي عن مصر وكذلك الموظفين المدنيين البريطانيين لضمان صحة الاقتراع وطلبت المذكرة كذلك الاعتراف بحيدة قناة السويس » [٢] .

لكن قمة هذا التطور في مواقف فريد تبرز في برقيته التي وجهها إلى الرفيق لينين في اعقاب نجاح ثورة اكتوبر الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

« تتشرف لجنة الحزب الوطني بأن تعرب عن شكرها الادبي لحكومتكم الديمقراطية بمعنى الكلمة ، بمناسبة تصريحها بأسمى وأغلى ما يمكن ان تصبو اليه الانسانية من المبادىء المتعلقة بالحرية والمساواة . ان هذه المبادىء التي صرحتم بها وانتم مجردون عن الهوى والغرض قد انعشت النفوس وأحيت في الامم المستعبدة ميت الآمال في حياة جديدة تملؤها السعادة والرفاهية حياة قائمة على تحريرها من اغلال اصحاب رؤوس الاموال

---

(١) الطليعة — ابريل ١٩٦٩ البروفسور لوثر راثمان مقال : ٦ زعماء مصريين في ألمانيا .

(٢) عبد الرحمن الرافعي — المرجع السابق ص ٤٣٢ .

وأصفاد محبي الاستعمار – ان اللجنة تشكركم بصفة خاصة على التلغراف اللاسلكي الذي ارسلتموه إلى جميع الحكومات طالبين فيه تحرير مصر . وترجو منكم ان تكلفوا مندوبيكم في مؤتمر برست ليتوفسلك بأن يطلبوا تحرير مصر من نير الاحتلال الانجليزي » (١) .

.. هكذا صعد الزعيم إلى القمة عبر معاناة عظيمة استطاع بها ومن خلالها ان يدرك حقيقة الرأسمالية وحقيقة كونها المولد الحقيقي للاستعمار وان يدرك ان الصراع الحقيقي ضد الاستعمار لا يكون بمعزل عن الصراع ضد الرأسمالية العالمية .

فكان هذا هو الموقف الجديد

* * *

وكما كان الصعود حاسماً ومضطرداً نحو القمة في الموقف من القضية الوطنية . كان الامر كذلك في قضية التوجه الاجتماعي ..

فالبداية معتدلة تماماً واصلاحية صرفة . وقد تركزت آمال فريد وحزبه لفترة من الوقت حول الدستور ومجلس شورى القوانين على امل انه من خلال تحقيق المزيد من النفوذ لمجلس شورى القوانين على اساس دستوري يجعل الحكومة مسئولة امامه يمكن تحقيق عديد من الاصلاحات الاجتماعية والتعليمية

(١) المصور ١٤ – ١١ – ١٩٦٩ مقال صبري أبو المجد . المرجع السابق .

ولفترة من الوقت نجح الحزب الوطني في ان يكسب نفوذاً في مجلس شورى القوانين ، وان يتخذ موقف المدافع عنه وعن سلطاته ضد طغيان الاحتلال وتخاذل الخديوي .

وفي مذكراته عن ٢٤ ديسمبر يقول فريد « نشر تقرير مقدم من السير بالمر الانجليزي المستشار المالي رداً على اعتراضات مجلس شورى القوانين .. وهو تقرير شديد اللهجة لم تراع في تحريره آداب الكتابة فكله قدح في مجلس نواب الامة وانه لم يتدبر في اعتراضاته ولم يفحص الميزانية فحصاً جيداً » (١) .

وفي صفحة اخرى من المذكرات نطالع « إبتدأت سنة ١٨٩٧ ميلادية والحكومة على ما رأيت من الانحطاط والنظار مستسلمون للانكليز مكتفون بقبض الراتب ، والامة تئن تحت وطأة الاجنبي والجرائد الوطنية تدافع قدر الطاقة ومجلس شورى القوانين يظهر عدم رضاه عن هذه الحالة والحكومة تظهر له الجفاء والعداوة وتغلظ له القول » (٢) .

ولقد طالعنا في صفحات سابقة مدى الانزعاج الذي ألم بالاحتلال من جراء تواجد نفوذ ما للحزب الوطني في صفوف الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين .

ولفترة من الوقت ركز الحزب الوطني جهوده على ضرورة انشاء مجلس نيابي حتى تكون الحكومة مسئولة امامه ويكون

---

(١) رؤوف عباس – المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٧٩ .

لاعضائه حق سؤال الوزراء .

وقد نجح الحزب الوطني في ان يعبيء الجمعية العمومية معه او خلفه في هذه المعركة فطلبت الجمعية العمومية في مارس ١٩٠٧ رسمياً انشاء مجلس نيابي وردت الحكومة عليها في ٨ فبراير ١٩٠٨ « ترى الحكومة ان الوقت لم يأت بعد لتشكيل مجلس نواب يرجى منه النفع العام » [١] .

ورداً على ذلك قرر فريد ان يوسع نطاق جبهته .. وان يضم اليها جماهير الشعب بثقلها الكبير والخديوي ايضاً .

ونشرت اللواء في ٢٩ فبراير ١٩٠٨ نص عريضة موجهة للخديوي نصها كما يلي :

« مولاي اني بكل اخلاص وثقة بميولكم السامية التمس من لدنكم ان تمنحوا رغبتكم المخلصة ما منحها ابوكم الكريم اياه في عام ١٨٨١ ، وهو انشاء مجلس نيابي يكون عونـاً لحكومتكم السنية على نشر العلوم والمعارف ويساعدكم على ترقية البلاد تحقيقاً لميولكم الطاهرة » [٢] .

وقد حقق فريد بهذه العريضة عدة اهداف .

اولـهـا : محاولة كسب الخديوي إلى صف معركة الدستور ..

وثانيها : تأكيد مبدأ توجيه المطالبة اليه وليس للاحتلال ودق

(١) محفوظات الجمعية العمومية لدور انعقاد ١٩٠٩ . وثيقة رقم ٧ .
(٢) اللواء ٢٦ – ٢ – ١٩٠٨ .

إسفين بين الخديوي والاحتلال والتأكيد على ضرورة عدم الاعتراف بشرعية الاحتلال .

ثالثها : النزول إلى الجماهير .. وهذا هو أهم الاهداف جميعاً فهي المرة الاولى التي يدفع فيها فريد كوادر حزبه إلى عمل جماهيري واسع ومنظم .. وبعد شهرين كان لدى فريد ٤٥,٠٠٠ توقيع سلمت في اربعة مجلدات إلى رئيس ديوان الخديوي . وفي اول ديسمبر سلم فريد الدفعة الثانية وتضم ١٦ الف توقيع .

. وهكذا اصبحت معركة الدستور معركة جماهيرية .. وبينما كان قطار الخديوي يمر بمحطة طنطا وزع الشباب منشورات كتبوا عليها « تكرموا بمنحنا الدستور » وما ان وصل الركب الخديوي إلى القاهرة حتى وجد مظاهرة اخرى تهتف « الدستور يا افندينا »

وهكذا يصعد فريد معركته ، ويوسع من نطاقها .. ويشرك فيها اوسع الجماهير ويحث الشارع المصري على ممارسة اساليب اكثر ثورية في العمل السياسي ، العرائض المنشورات المسيرات المظاهرات .

وعندما وصل الكولونيل تيودور روزفلت الرئيس السابق للولايات المتحدة في زيارة خاصة لمصر هاجم فيها مطالبة الحزب بالدستور وقال « ان بعض الجهلاء يعتقدون ان منح الامة دستوراً على الورق وبخاصة اذا كان مفتحاً بعبارات فخمة من شأنه ان

بمنح الامة الحكم الذاتي » [1] وكال له فريد الصاع صاعين ونظم ضده العديد من المسيرات والمظاهرات التي ايقظت الشعور العام ونبهت الجميع إلى أن مصر تمر فعلاً بمرحلة جديدة . في نضالها السياسي ..

وعندما قررت حكومة بطرس غالي باشا إعادة العمل ، بقانون المطبوعات القديم في مارس ١٩٠٩ بحجة ان الحرية التي تتمتع بها الصحافة « اضرت بمصالح البلاد ضرراً بليغاً » دعا فريد الجماهير إلى التظاهر احتجاجاً على هذه الخطوة ونظمت اول مظاهرة يوم ٢٦ مارس في حديقة الجزيرة حيث احتشد اكثر من عشرة الاف من الطلاب والتجار والصناع ساروا وهم يهتفون ضد قانون المطبوعات حتى وصلوا إلى ميدان الاوبرا . وبعدها بثلاثة ايام نظمت مظاهرة اخرى اصطدمت هذه المرة بالبوليس الذي حاول منعهم من الوصول إلى ميدان عابدين . وفي اليوم التالي مظاهرة ثالثة تحولت إلى اشتباك دام مع البوليس

وبهذا تكون الحركة الشعبية قد صعدت مع فريد وبفضله من التوقيع على العرائض إلى المسيرات إلى المظـــاهرات التي اتسمت بالعنف ضد البوليس .

لكن ذلك كله كان في الشق المتعلق بالحريات والدستور . فماذا عن المشكلات الطبقية ومطالب الجماهير الشعبية المتعلقة بحياتها واحوالها الاجتماعية ؟

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ١٩٣ .

« اما انا فأفخر واتشرف بأني ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون .. ويظهر اذا جلياً اننا لسنا من تلك الفئة الغنية الغريبة الاصل عن الفلاحين ، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضي لانهم اما اخواننا او آباؤنا [1]

هكذا كتب مصطفى كامل في اكتوبر ١٨٩٧ رداً على جريدة المانية اتهمت قادة الحركة الوطنية بانهم ليسوا من جنس مصري.

اما فريد فهو ارستقراطي لا يخفي ارستقراطيته . او هكذا كان في بداية الامر ..

فهو يطعن في احد خصومه السياسيين (الشيخ علي يوسف) بأنه نشأ فقيراً معدماً وضيع الاصل بل هو يتحدث عن خصم سياسي آخر هو سعد زغلول فيقول في مذكراته بمناسبة نجاح سعد في انتخابات الجمعية التشريعية ان سعد « نشأ فقيراً وتعلم في الازهر بدون ان يتم او يحصل على شهادة .. ثم اشتغل بصفة كاتب عند حسين بك صقر المحامي .. وكان يلبس لباساً بسيطاً بلدياً ويأتي مع مخدومه إلى منزل المرحوم والدي لقضاء السهرة اما هو فكان يحمل الفانوس امام مخدومه في الذهاب والاياب ويجلس مع الخدم .. ثم استخدم كاتباً بالوقائع المصرية على ما اتذكر » [2]

---

(١) علي فهمي كامل – المرجع السابق – ص ٣٦٠ .
(٢) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٣٦٠ .

هناك اذن فارق الانتماء الطبقي بين الزعيمين .. مصطفى ابن ضابط ابوه فلاح ، اما فريد فإبن باشا ابوه من حكام مصر الاتراك وهكذا كانت المواقف متباينة في اول الامر .

فبينما مصطفى كامل يصرخ مدافعاً عن الفقراء«ان الفقراء هم قوة الامة وساعدها العامل ، وهم الذين يحملون الاغنياء على اكتافهم ، فان اخلوا بهم اسقطوهم إلى اسفل سافلين[1]

ونراه يدافع عن الفلاحين (ابناء عمومته) « متى نرى نور العلم يطغي على ظلام الجهالة وتنتصر الفضيلة على الرذيلة ، وان يفهم الفلاح بأنه رجل كبقية الرجال يتساوى امام الله وامام الوطن مع اكابر القوم » [2]

كان فريد يكتب في مذكراته عن يوم ٢١ مايو ١٨٩٤ « وردت هذا اليوم تلغرافات من بور سعيد تفيد اعتصاب عمال نقل الفحم طلباً في زيادة الاجرة وضربوا المشتغلين فتداخلت الحكومة وقبضت على كثير منهم » . ثم يصف فريد الاضراب بأنه « داء اوربي قد سرى لمصر » [3]

لكن الطريقين يلتقيان في إطار الحزب .. ذلك الحزب الذي ادرك منذ اليوم الاول مسئولياته تجاه العمال والفلاحين .. وتجاه الفقراء عموماً ..

---

(١) أحمد رشاد – المرجع السابق – ص ٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٦ .
(٣) رؤوف عباس – المرجع السابق – ٢٠٤ .

وفي خطابه يوم تأسيس الحزب في ٢٢ اكتوبر ١٩٠٧ وقف مصطفى كامل وسط جمهور غفير ليقول « نقول للامة خذي من العلم اوفر قسط وتسلحي باسلحته واملأي وادي النيل من ثورة وردي إلى الفقير حقه ونصيبه من المنهل العذب ، مـا فائدة الاموال التي تجمع والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج اذا كانت الاسوار قائمة بين الفقراء والعلم » .

ثم يتحدث عن الفلاح الذي قضى القرون من السنين وهو معتقد انه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له ، فاسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته فهو ممثل النشاط المصري ومصدر كل خير ونعيم فيحيي عصر ينطلق فيه التاريخ بان الفلاح ألقى اثقال القرون الماضية وصار رجلاً حراً بفضل ابناء طنه المتعلمين المجاهدين في سبيل حريته ، وسعادته » (١)

وعندما علم مصطفى وهو بالخارج ان لجنـة تألفت في القاهرة لجمع اكتتاب بقصد اقامة حفل تكريم له عند عودته ارسل لفريد يرجوه الغاء الحفل وان تقوم اللجنة بجمع اكتتاب « لتأسيس كلية اهلية تجمع ابناء الفقراء والاغنياء على السواء » (٢)

ورويداً رويداً يتطور موقف الحزب على يدي فريد ويلقي فريد خطاباً في المؤتمر الوطني (٧ يناير ١٩١٠) يقول فيـه

(١) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٢٧٧ .
(٢) أحمد رشاد – المرجع السابق ص ٢٢١ .

« الديمقراطية الحقة والمساواة الحقيقية تقتضيان ان يكون التعليم الابتدائي مجاناً لجميع طبقات الامة فقيرها وغنيها حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ويعرفون منذ نعومة اظافرهم التفاوت بين الناس الا بخدمة الوطن . »

ويقول « الفلاح المصري اتعس فلاح في العالم ، اتعس من الفلاح الروسي الذي يضرب بشقائه المثل ولا خلاص له من هذه الحال الا بنشر التعليم الابتدائي وجعله اجبارياً وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوق الفلاح امام الحكومة وامام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وغير مناسبة وامام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى له بين جشع الملاك وظلم الحكومة . »

وعن العمال يقول فريد « وان نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومة وتطأطيء رأسها » ويقول « العمال في بلادنا مهملون كالفلاح ، فلا قانون يلزم المقاول بدفع تعويض لمن يموت شهيد عمله ، او يفقد احد اعضائه فيصبح عديم الكسب ومن الامثال العامية (ان الفاعل ديته اجرته) ولا الحكومة تدافع عنه فهي كما قلنا وقررنا لا تهتم الا بدفع فوائد الديون ، او هي شبه شركة لاستغلال وادي النيل »

ويدافع فريد في خطابه ايضاً عن الصناعة الوطنية ويقول « اظنكم لن تنسوا ان الحكومة فرضت ٨ في المائة على ما يغزل من القطن في مصر ، فأماتت هذه المصانع مراعاة لمصالح الغزالين

في انجلترا » . [1]

وفي تصريح له في جريدة الديلي نيوز (يوليو ١٩٠٨) يقول فريد « إلى الآن لا يوجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ولا قوانين تحديد سنهم ولا عدد الساعات التي يجب ان يقضوها في العمل .. فنجد العمال مثقلي الكواهل بلا رحمة خصوصاً في معامل الدخان ومعامل حلج القطن حيث يشتغل الاطفال ذكوراً واناثاً في وسط من ارداء الاوساط من الوجهة الصحية والادبية وقد كتبت الصحافة المصرية كثيراً من هذه المسائل بلا جدوى ولا تأثير في الدوائر الرسمية » . [2]

وانطلق رجال الحزب ينظمون العمال في نقابات وينظمون الفلاحين في جمعيات تعاونية زراعية وهكذا اوجد فريد الاساس العملي للتحرك الحزبي في صفوف الطبقتين المقهورتين من خلال تنظيم هاتين الطبقتين في مؤسسات اقتصادية واجتماعية يمسك الحزب بزمام التوجيه فيها .

وكانت نقابة عمال الصنائع اليدوية في بولاق هي اولى المؤسسات النقابية التي اقامها الحزب الوطني وسرعان ما اتسع نشاطها واصبح عدد أعضائها ٨٠٠ عضو ثم أقيمت فروع اخرى في الاسكندرية والمنصورة وطنطا .

كذلك انشأ رجال الحزب ٢٣ نقابة للتعاون الزراعي و ١٧

(١) فتحي رضوان – مشهورون منسيون – ص ٢٢ .
(٢) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق – ص ١١٠ .

شركة تعاون منزلي [1]

وكان فريد يهتم اهتماماً كبيراً بمثل هذه الانشطة وكان يتابعها من منفاه ويستحث رجاله بالداخل للعمل الجاد لتعزيزها ونقرأ في رسالة من فريد إلى عبد الرحمن الرافعي (ابريل ١٩١٣) تأنيباً واضحاً « على اني لم اسمع من مدة ، بتشكيل نقابات جديدة او شركات تعاون او شيء اخر من هذا القبيل مع انكم لو قام كل فرد منكم بتأسيس جمعية اقتصادية في دائرته لبلغ عددها في وقت قليل العشرات بل المئات ، ولذلك ارى ان اشتغالك بالتأليف لا يجب ان يمنعك من الاشتغال عملياً في تأسيس النقابات مع اخوانك وما هـذا بعزيز عليكم لو اردتم » [2] .

ومن مشاريع فريد التي تستحق التأمل ايضاً مدارس الشعب الليلية وكان الغرض منها تعليم الفقراء من العمال مجاناً وقد تطوع للتدريس فيها شباب الحزب » [3] .

ومع احتدام المعركة بدأت عملية فرز هامة فالكثير من البكوات والباشوات الذين اقتربوا من الحزب في ايامه الاولى يتساقطون الواحد تلو الآخر . وانصاف الاثرياء يتراجعون امام ضغط الاحتلال وارهابه ويخشون على مصالحهم وعلاقاتهم ..

(١) عبد الرحمن الرافعي – نقابات التعاون الزراعي – الطبعة الأولى – ١٩١٤ مطبعة النهضة الأدبية ص ٢٣٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي – مذكراتي – المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣) المرجع السابق – ص ١٦ .

وبالمقابل كانت الطبقة العاملة تصعد من نضالاتها وتخوض سلسلة عنيفة من الاضرابات ومظاهرات العاطلين التي اسميت « مظاهرات الجوع » .

وفي هذه الظروف كان طبيعياً ان يقترب فريد اكثر فاكثر من حركة الطبقة العاملة ، ولعله قد تأثر كثيراً في ذلك بعلاقاته الخارجية بالاحزاب الاشتراكية والعمالية في اوربا وبادراكه للقدرات التي تكتسبها من عملها المنظم في صفوف الطبقة العاملة وهو يؤكد ذلك في خطابه في المؤتمر الوطني عام ١٩١٠ اذ يقول « لقد اصبح حزب العمال في انجلترا من الاحزاب المسموعة الكلمة بهمة من كرسوا حياتهم لخدمة هذه الطبقة من الاهالي . »

هكذا عرف الحزب الوطني تحت قيادة فريد طريقة للدفاع عن الطبقة العاملة وعن نضالاتها وعندما يضرب عمال الترام في عام ١٩١١ عن العمل ويصطدم البوليس بهم في معركة وحشية تكتب اللواء قائلة « احدث البوليس مجزرة في العمال ورأس الشعب في ساحات المدينة بسنابك خيله واوسعه ضرباً واغراقاً بالدماء وعامل الجمهور معاملة السيد لعبيده وداس القوانين ، فلا نعلم لماذا نسكت نحن ونقف عند الحدود التي لا تقف عندها الحكومة والبوليس والشركات ، هم يدوسون النظام وينتهكون حرمة القوانين ويعاملوننا معاملة العبيد ، فلا نعلم نحن لماذا لا ندوس ولو على الورق على ذلك الظلم الفاضح والهمجية ؟ . ونحن نقول للعمال انهم يخيفونكم ويرهبونكم ويريدون

التهويل عليكم لظنهم انكم من غير طينة العمال في اوروبا وانهم اذ عاملوكم بالشدة جبنتم وخضعتم . وتستمر الشركة في حلب البقرة الحلوب والبوليس يمسك رأسها تسهيلاً لحلبها . ولكن اعلموا ان الاعتصام حق من حقوقكم الطبيعية واذا اردتم الاستمرار فيه فما من قوة قادرة على التأثير عليكم ان قضيتكم ليست قضية عمال الترام فقط بل هي قضية جميع العمال في مصر .. وقد جاءت حادثتكم بعد حادثة عمال السكة الحديد دليلاً على انه اصبح في مصر قوة لا يستهان بها ، وهي يقظة العمال في البلاد الشرقية وتنبههم إلى مصالحهم وحقوقهم ورغبتهم في ان يكونوا بشراً كسائر البشر » [1] .

اية مسافة تفصل بين هذا الموقف الواضح والمحدد وبين كلمات سابقة كتبها فريد في مطلع حياته السياسية « الاضراب داء اوربي سرى إلى مصر » هذه المسافة توضح لنا حقيقة الرحلة المجيدة التي قطعها فريد مع حزبه باتجاه التقدم وباتجاه الدفاع عن جماهير العمال والفلاحين .

وتمضي الرحلة المجيدة إلى الامام .. وفي المؤتمر الوطني لعام ١٩١٢ يقول فريد في خطابه « ارجعوا البصر إلى حالة العمال في مصر .. تجدوا انهم في أحط دركات الفقر فالعامل لا يحصل على قوت يومه الا بعد ان يشتغل اثنتي عشرة ساعة كل يوم على الاقل . والفلاح لا يصل إلى ما يسد الرمق من

(١) اللواء – ٥ – ٨ – ١٩١١ .

أردأ انواع الخبز بلا إدام الا بشق الانفس كل ذلك ناشيء من فقدان مبدأ الاجتماع والتضامن من بينهم واهمال سراة البلاد كل ما يتعلق بأمورهم » [1]

والحقيقة ان التقدم بهذا الاتجاه لم يكن عاطفياً ولا طارئاً فان تتبع افكار فريد العامة خلال هذه المرحلة توضح سمات تقدمية متعددة الجوانب فعندما يناقش محمد فريد مأساة خضوع غالبية مجلس شورى القوانين لضغوط الاحتلال فانه يناقش الامر على اساس طبقي .. « ان الذين ظهروا بالمظهر الشريف في المجلس قليلون جداً، ولكن العيب في ذلك يكمن في طريقة الانتخاب التي تحتم ان يكون المنتخب من اصحاب العقار ولو لم يكن من اصحاب العقول الراجحة او المعلومات الواسعة ، ولا دواء لهذه العلة الا تعديل شروط الانتخاب .. ويكتفي بأن يكون اسم المرشح مقيداً في السنة التي يحصل فيها الانتخاب وان يكون ممن يحسنون القراءة والكتابة باللغة العربية .. والا فما دام الامتياز لاصحاب العقارات والاطيان فمن الصعب ان يرتقي مستوى المجلس في المعارف عما هو عليه الآن . »

وهو يتحدث في نفس الخطاب عن التعليم فيقول « يجب ان يكون قصدنا جميعاً الوصول إلى جعل التعليم الابتدائي الزامياً ومجانياً لكل مصري ومصرية ، اقول مجانياً لانه لا يمكن التوفيق بين الالزام ودفع اجرة على التعليم ولان جعله مجانياً للفقراء وبأجرة

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – محمد فريد – المرجع السابق – ص ٣١٩ .

للاغنياء فيه جرح لعواطف الفقراء من التلاميذ الذين يرون انفسهم محتقرين في نظر اخوانهم ومعلميهم فالديمقراطية الحقة والمساواة الحقيقية يقضيان بأن يكون التعليم الابتدائي مجانياً لجميع طبقات الامة فقيرها وغنيها بلا تمييز حتى يشب التلاميذ على حب المساواة ويعرفون منذ نعومة اظفارهم ان لا تفاوت بين الناس الا بخدمة العامة وان اقربهم إلى الله اتقاهم لا اغناهم » (١)

وفريد يتوقف عند بعض المسائل ويتخذ منها موقفاً محافظاً وهو يروي في مذكراته عن مقابلته مع رفعت باشا سفير الدولة العثمانية ويقول عنه « انه مع القائلين برفع الحجاب عن المرأة المسلمة والا تقدم لنا الا باعطاء المرأة حريتها الاجتماعية .. وهو في نظري رأي فاسد وارى ان الذي يجب الاهتمام به هو تعليم المرأة كالرجل في كل درجات التعليم ، واني أستغرب جداً القول بجعل المسلمة كالاوربية اخلاقاً بعد الذي نراه هنا من فساد الاخلاق في جميع الطبقات ذلك الفساد الناشيء من الاختلاط » (٢)

لكن للرحلة حدودها .. ففريد اياً كانت قدرته على الانطلاق مرتبط بموقف الطبقة الوسطى لعله على يسارها قليلاً لكن محورها الاساسي يمتلك قوة جذب اساسية بالنسبة له .

والغريب بعد ذلك هو اننا نكتشف انه كان على علاقات

---

(١) عبد الرحمن الرافعي ، المرجع السابق . ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٢) محمد صبيح — المرجع السابق — ص ٢٧٠ .

ما ببعض البلاشفة .. وربما بشكل غير مباشر بلينين شخصياً .. لكنه لم يكن متفقاً معهم حول الاساليب الثورية .

تحدثنا عن هذه العلاقة مدام روشبرون التي تحدث فريد في مذكراته طويلاً عن علاقاته بها وعن كونها جاسوسة مزدوجة له وللخديوي معاً وعليه وعلى الخديوي معاً .. تقول مدام روشبرون عن مواقف فريد السياسية « كانت افكاره حول استغلال الرأسمالية لطبقات الشعب تتقارب كثيراً مع افكار اصدقائي الروس الذين كانوا يكلموني دائماً عن فلاديمير لينين الساكن في الحي الرابع عشر في باريس والذي كان يجتمع بهم في حديقة بارك مونسوري ليحدثهم عن الظلم الاجتماعي وقد حضرت عدداً من هذه الندوات بصحبة عدد من المصريين ولكن فريد كان يختلف عن هؤلاء الروس في انه كان يحترم شرعية السلطة الحاكمة ، رغم انه كان يعرف ان الحاكم غير مخلص »[1]

وكان طبيعياً ان يزداد انزعاج الاعيان وابناء الطبقة الوسطى من اعضاء الحزب من هذا التوجه عند الزعيم .. وكان طبيعياً ان يؤدي ذلك إلى هروبهم من الميدان .. خصوصاً وان الارهاب الذي ساد مصر في اعقاب اعلان الحماية قد اسكت الجميع وقد شل الطبقة العاملة عن الحركة .

وتوقفت اعلامها عن الخفقان .. لكن فريد يواصل مسيرته

---

(١) المصدر - ١٤ - ١١ - ١٩٦٩ - درية عوني : حديث مع رينيه روشبرون .

بهمة لا تعرف اليأس .. وهو يستبشر بالروح الحماسية في مجموعات الطـلاب المصريين بالخارج فيقول في مذكراته وبالاختصار كانت هذه الحفلة باعثه على زيادة الامل عندي في الشعبية المصرية . فاني اجد الشعبية اليوم ارقى احساساً وشعوراً وطنياً من التي سبقتها واقرب إلى فكرة تخليص البلاد بالقوة من ذي قبل فانهم كانوا يخطبون بكل شجاعة وبدون احتراس في ابداء افكارهم بكل صراحة مع تأكدهم من وجود جواسيس بين الحاضرين » [١] .

وبرغم ان الكثيرين من هؤلاء الشبان بحكم كونهم من ابناء الاعيان كانوا يعودون إلى مصر فيتراجعون عن حماسهم . الامر الذي دفع فريد اكثر من مرة إلى ان يسجل في مذكراته احساسه بالمرارة .. « احمد افندي عبد الغفار .. كان يكاتبني كثيراً ويساعد مجلة ترقي الاسلام بماله ولكن يظهر ان السبات المصري استولى عليه بعد عودته ، فقد قابل الخديوي ، كما زار الخديوي عائلته .. وانقطع عن مكاتبتي بالمرة لانه علم بأنه مراقب مراقبة شديدة فخشي على نفسه ، وانكمش كما انكمش غيره من الشبان الذين كانوا شديدي الحماس اثناء طلبهم العلم بمصر او اوربا ثم خبت نارهم بمجرد دخولهم في ميدان الحياة [٢]

هكذا كان فريد يخوض معركته مع الطبقة .. بجمعها حول

---

(١) محمد صبيح ، المرجع السابق – ص ٢٨٥ .
(٢) المرجع السابق – ص ٢٥٤ .

راية الحزب ثم اذا بها تفلت منه لدى اول انحناءة ، فيجمع ابناءها من الطلاب المتحمسين لكنها لاتلبث ان تستعيدهم منه بما تمنحه لهم من مغريات .. ويخرج فريد من هذه الحركة بحصيلة من الشبان الوطنيين الذين صمدوا معه وحوله وظلوا أوفياء لرايته التي كانت تزداد تقدمية يوماً بعد يوم .

ومن هؤلاء « الجمعية المصرية في باريس » والتي تكونت كفرع للحزب الوطني ولعب الدور القيادي فيها خليفة بوبلي ونور الدين طراف وعبده جودة ومجد الدين حفني ناصف .

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ كانت هذه المجموعة تعمل بنشاط زائد واذ رفرف على مظاهرات ثورة ١٩١٩ العلم الاخضر ذو الثلاث نجوم كرمز للديانات الثلاث ، فان الجمعية المصرية في باريس قد اتخذت العلم الاحمر ذو الثلاث نجوم والذي ظل إلى امد طويل يرفرف في مناسبات عدة إلى جوار العلم الاخضر .

وكانت هذه المجموعة على علاقة وثيقة بالحزب الاشتراكي الفرنسي وبجريدة الاومانيتيه .

ويتحدث محمود ابو الفتح عن هذه العلاقة فيقول « وكانت التجربة قد علمت اعضاء الجمعية المصرية بباريس انه لا رجاء في احزاب اليمين لانها قبل كل شيء استعمارية المبدأ ، ولانها لاتخدم مصلحتها استقلال مصر .. وعلمت التجربة اعضاء الجمعية المصرية ايضاً

ان العون الوحيد الذي ينتظر في فرنسا انما هو من احزاب اليسار لانها تتبع في دفاعها عن مصر مبادئها القائلة بحق الامم في ان تعيش حرة متعاضدة متعاونة » [1] .

وعندما وصل الوفد المصري برئاسة سعد زغلول إلى باريس التقى به اعضاء الجمعية المصرية وتعاونوا معه . وقدموا لـه خبرتهم عن القوى السياسية في فرنسا ومواقفها المختلفة وعرضوا عليه تنظيم علاقة مع الحزب الاشتراكي الفرنسي « وكانت لجنة الحزب الاشتراكي الفرنسوي على استعداد لاستقبال اعضاء الوفد رسمياً وسماع اقوالهم .. ولكن الوفد كان يرى ان اتصاله بأحزاب اليسار ينفر منه انصار اليمين واحزابه » [2] .

والذي يهمنا هنا هو ان هؤلاء الرجال الذين كانوا على علاقة وثيقـــة باليسار الفرنسي كانوا رجال فريد ، بل كانوا عينه على تحركات سعد زغلول ووفده وكانت هناك مراسلات سرية بين فريد وبين مجد الدين حفني ناصف .. وبين اوراق فريد الخاصة توجد رسالة من مجد الدين ناصف مؤرخة « باريس في ٣١ اغسطس ١٩١٩ » .. وتقول الرسالة « وصلتنا المطبوعات وسأعطي منها للجمعية المصرية لتنشر في مجلتها وسأرسل بعض الاوراق الى مصر لترجمتها ونشرها بالطريقة التي اعرفها وقد أرسلت

---

(١) محمود أبو الفتح – المسألة المصرية والوفد (الناشر لم يذكر وكذلك تاريخ الصدور) ص ٩٣ .
(٢) المرجع السابق – ص ٩١ .

بعضها فعلاً مع مسافر إلى انجلترا للجمعية التي هناك .. وبذلك يتم نشرها على الملأ » .

وينهي مجد الدين ناصف خطابه بأنه « سيكتب إلى الاخوان في مصر بخصوص عمل توكيلات من نقابات العمال والاتفاق معهم على اختيار بعضهم لحضور المؤتمر الاشتراكي بسويسرا »(١)

ويتضح من هذه الرسالة ان فريد كان قد نجح في تكوين مجموعات من الشبان المصريين اليساريين في باريس ولندن (وفي برلين كما تؤكد وثيقة اخرى) وان هذه المجموعات كانت على علاقة بمجموعات مماثلة في مصر وانهم كانوا على علاقات بالنقابات العمالية ..

ولعل اكبر دليل على جدية هذا النشاط واهميته ان سعد زغلول قد استشعر منه الخطر ووجه اكثر من رسالة سرية إلى لجنة الوفد المركزية يحذرها من هذا النشاط داخل مصر ويطالب بوقفه فوراً .

وبادىء ذي بدء نقول ان الجمعية ما لبثت ان اصطدمت بسعد زغلول واتهمته بالتهاون .. وفي احد الاجتماعات وقف مجد الدين ناصف ليعلن في وجه سعد « نحن نسحب منك الثقة » فرد سعد «أنا وكيل عن الامة ولست وكيلاً عن جمعية الطلبة»(٢)

---

(١) المصور – ١٤ – ١١ – ١٩٦٩ .

(٢) د . رفعت السعيد – عصام الدين حفني ناصف – دار الثقافة الجديدة – ١٩٧٠ ص ٢١ .

ويقرر سعد زغلول ايقاف المعونة المالية التي كانت تقدم للجمعية لتنفق منها على مطبوعاتها ، لكن الجمعية توجه نـــداء إلى المصريين في ارض الوطن وتنهال عليها التبرعات .. ويرسل سعد اكثر من رسالة سرية غاضبة إلى عبد الرحمن فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية .

« يظهر ان مسألة الجمعية المصرية قد اتسعت اخيراً لعطف البلاد عليهم ومساعدتهم بالاموال وايجاد لجنة لهم في مصر . وظاهر ان مثل هذه التصرفات لا تتفق مع وحدة العمل ووحدة الوجهه فانهم مهما كان شعورهم عظيماً فانهم يقعون في الاغلاط كثيراً ولا يؤمن عليهم من غير اشراف الوفد . ولذلك يكون الاولى ان يترك الامر للوفد فهو يقدم لهم ما يلزمهم من النقود ويشرف على اعمالهم بوجه الاجمال ويرشدهم إلى الدائرة التي يجب ان يوجهوا فيها مجهوداتهم . وقد كتب حمد باشا لاخيه عبد الستار يرجوه في ان يكتب للجمعية المصرية بأن خروجها على الوفد يسقطها وبأن يمتنع عن ارسال النقود اليها واذا امكن الغاء لجنتهم بمصر يكون اكمل واوفى » .. وتمضي الرسالة قائلة ان الوفد حاول ضم الجمعية واحتوائها « حتى يعامل اعضاءها كابنائه ويساعدهم بكل ما يلزمهم الا انهم كانوا في غاية العناد واشدهم عناداً هو محمد الدين افندي ناصف فلذلك ارى انه اذا عاد ليخدم القضية في مصر يكون اصح للوفاق هنا[1]

(١) د . محمد أنيس – دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ جـ ١ (١٩٦٣) – مكتبة الانجلو المصرية ص ٢٥٢ .

ولعل هذه الرسالة كافية بذاتها لتوضح كيف كان سعد زغلول يخشى من حجم واتساع حركة هذه المجموعة من الشبان الامر الذي يوضح ان ثورة ١٩١٩ لم تكن بعيدة عن تأثير فريد ولا عن جهوده بالصورة التي يحاول البعض ان يقول بها .. ويوضح ان راية فريد قد ظلت خفاقة تحملها مجموعات من الشبان اليساريين الذين تطوروا من موقع الوطنية الراديكالية إلى موقع اليسار .

* * *

لكن موضوعاً يبقى معلقاً بغير بحث ، ويحتاج منا إلى وقفة متأنية ما هي قصة الاغتيالات او لجوء الحزب الوطني إلى العنف الثوري في تصفية حساباته مع الانجليز وعملائهم من الخونة .

وبادىء ذي بدء نود ان نشير إلى انه ما من حادث اغتيال او محاولة اغتيال وقعت في هذه الفترة الا وكانت لها علاقة او شبه علاقة بالحزب الوطني .

ابراهيم الورداني قاتل بطرس باشا غالي كان احد كوادر الحزب الوطني بل ان فريد يورد في مذكراته « سافرت مع وفد من الحزب الوطني إلى الاستانة لحضور عيد الدستور في ٢٣ يوليو ١٩٠٩ وانضم الينا هناك ابراهيم الورداني »[1] .

وعن حادثة القتل يقول الرافعي « واذ كان القاتل من

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٢٣٧ .

شباب الحزب الوطني فقد تشعب التحقيق واتجهت تهمة الاشتراك في الجناية إلى لفيف من شباب الحزب [1] ويقول احد الباحثين الفرنسيين « لقد اخذ الحزب الوطني على نفسه القيام بمصاريف قضية الورداني وجهد في اكساب القاتل عطف الجمهور منادياً به شهيد الوطنية » [2] .

وكان هذا الحادث مجرد بداية لموجة من العنف الثوري المسلح . ثم كان هناك محمد محمد خليل الذي شنق على اثر محاولته اغتيال السلطان حسين كامل ويقول عنه قريبه محمد شكري الكرداوي « وكان الذي يزور غرفته الخاصة يرى على الحائط اطاراً بديعاً في زواياه الاربع صورة مصطفى كامل باشا وصورة علي فهمي كامل بك وصورة محمد فريد بك وصورني » [3]

وعندما تتكرر محاولات اغتيال السلطان حسين كامل ادلى السلطان بحديث إلى جريدة المقطم المح فيه إلى وجود قوى منظمة خلف عمليات محاولة اغتياله فقال « اني لو تحققت ان هذه الحوادث واقعة من افراد متهوسين لم يدفعهم لارتكابها الا لؤم طباعهم وخبث فطرتهم لكان اهتمامي بالامر اقل كثيراً

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) وجه لاميلان – في سبيل الاستقلال ، مصر وانجلترا – ترجمة ميخائيل بشارة داود (١٩٢٣) مطبعة رعمسيس ص ٦٧ .

(٣) محمد شكري الكرداوي – مذكرات خمسة وخمسون شهراً في مجبس (١٩٣٦) دار الطباعة الأهلية صفحة ي .

مما هو عليه الآن . لكني متى ثبت لي ان الجريمة واقعة باتفاق جماعة من الاشرار لكان ذلك دليلاً على وجود جرثومة فساد في البلاد مضرة بمجموعها ولا بد من استئصال هذه الجرثومة ليصلح المجموع كله . وهذا ما نحن بصدده . وهو الذي يهمني كثيراً . (١) .

ولم يمضِ سوى اقل من ثلاثة اسابيع حتى نشر محمود فهمي الذي كان سكرتيراً للحزب الوطني بياناً يعلن فيه استقالته من الحزب واتهم فيه « الاغرار » من رجال الحزب الوطني بتدبير حوادث الاعتداء على السلطان واعلن تبرأه من الحزب (٢)

وثمة رواية اخرى عن مجموعة مسلحة للاغتيالات تكونت في داخل الحزب الوطني .. وصاحب الرواية هو محمد طاهر العربي الذي سجن بتهمة محاولة اغتيال كتشنر ويقول في روايته) « اخذني امام واكد (احد اعضاء الحزب الوطني البارزين) إلى نادي المدارس العليا (وكان خاضعاً لنفوذ الحزب الوطني) حيث حصلت هناك من شخصية حزبية كبيرة محترمة على مسدس محترم ايضاً ذي عشر طلقات، ويقول«وفي مساء اليوم التالي اقلتنا عربة إلى جهة الامام حيث مقبرة الورداني وكان ذلك في مساء اول خميس من شهر رجب ١٣٣٠ (يونيو ١٩١٢) ووضعنا ايدينا في خشوع على القبر فوق المصحف والمسدس

(١) المقطم -- ٢٠ - ٧ - ١٩١٥ .
(٢) الأهرام ١٥ - ٨ - ١٩١٥ - وأيضاً الوطن ١٦ - ٨ - ١٩١٥ .

واقسمنا ان نكون امناء على العهد وان نؤدي هذا الفرض طائعين مختارين وزاد واكد على ذلك وان يقتل آخر فرد منا كل من يفشي السر او يخون العهد فرددنا قوله في حماس وصوت مرتفع » وتمضي الرواية « وفي اليوم الخامس والعشرين من يونيو ١٩١٢ اجتمعنا في غرفة علي بك فهمي كامل في جريدة اللواء واقترعنا على اغتيال كل من لورد كتشنر ومحمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار ، واقترح واكد ان يسافر احدنا إلى اوربا لاغتيال الخديوي عباس حلمي هناك .. ولكن عبد السلام اوقف الحديث باقتراح قدمه بأن نشعل النار في ادارة جريدة المؤيد بسائل فسفوري يحترق بذاته بعد مضي وقت محدود » .

وبعد اثني عشر عاماً كاملة قضاها احد اعضاء هذه المجموعة في السجن خرج وهو لم يزل على ولائه للحزب الوطني وعندما يتسلم أجرة زهيدة عن فترة اشتغاله بالسجن يتبرع بها للحزب الوطني ويوجه الرسالة التالية إلى رئيس الحزب الوطني «اني غادرت السجن بعد اثني عشر عاماً قضيتها خلف جدرانه ».

ووصلني من يومين كتاب من سعادة محافظ مصر يطلب إلي فيه الحضور إلى دار المحافظة لتسليم مبلغ ٢٢٣ قرشاً هو كل ما ادخرته لي ادارة السجن اجزاً على عملي في السجن خلال اثني عشر عاماً :

وحيث ان هذا المبلغ على ضآلته له في نفسي من القداسة والتكريم ما يجعلني اضمن به ان يصرف في غير وجه الوطن

والجهاد في سبيل تحريره ، وحيث اني لا اعترف ولااعرف إلى هذا الوقت على الأقل غير الحزب الوطني هيئة حملت لواء الجهاد من فجر النهضة الوطنية إلى اليوم . ولهذا كتبت إلى المحافظة ارجو ارسال هذا المبلغ تحويلاً إلى خزينة الحزب الوطني .. [1]

وتروي مدام روشبرون قصة اول لقاء لها مع فريد وتقول « هل تعرف من هو الشاب المصري الذي قدمني لفريد انـــه شفيق منصور الذي قتل سير لي ستاك في عام ١٩٢٤ وشنق بعد ذلك » [2]

والآن وقد تأكد لدينا ان الحزب الوطني او دوائر محددة منه على الاقل كانت ضالعه في عمليات العنف الثوري هذه يبقى امامنا ان نتأمل هذه الظاهرة التي تواجدت لاول مرة في تاريخ مصر الحديث وظلت ملازمة إلى حد كبير لشباب الحزب الوطني على مدى اجيال متعددة (حادث اغتيال السيرلي ستاك ، واغتيال احمد ماهر باشا واغتيال امين عثمان باشا ومحاولات اغتيال لنحاس باشا ... الخ) .

يعزو البعض هذه الظاهرة إلى مزاج الراديكالية المتشددة والمتسمة بالعزلة عن الجماهير والاحساس بالاحباط المستمر ..

---

(١) محمد طاهر العربي – هذا المجتمع الظالم – دار المستقبل (د . ت) . ص ١٧١ .

(٢) المصور ١٤ – ١١ – ٩ – ١٩٦٩ حديث درية عوني – المرجع السابق .

فيبدو الفعل السياسي السلمي وكأنه غير مثمر ، ويبدو الواقع وكأنه بحاجة إلى ما يهزه هزاً عنيفاً .

ويقول البعض الآخر انها طبيعة البرجوازية الصغيرة التي تفتقد الصبر الضروري لعمل سياسي دؤوب . فتتفجر سريعا في اعمال فردية تعبر بها عن سخط منفرد او جموح يفوق طاقة وقدرات المجموع وانها كانت حجة في يد الاحتلال لفرض المزيد من البطش مما ادى إلى اجهاض العمل الوطني .

ويقول الآخرون انه من الخطأ النظر لهذه الاحداث بمنظار الارهاب الفردي وهو امر مدان سياسياً .. وانها لم تكن سوى استخدام للعنف الثوري في مجابهة العنف الاستعماري والرجعي وان هذه العمليات كانت تهز المشاعر الوطنية وتوقظها وتحركها في وقت كان يشيع فيه مناخ الاستسلام واليأس .. وانها كانت بداياته لفعل الثوري الجماعي تجلى بأروع مظاهره إبان احداث ثورة ١٩١٩ .

ولقد تختلف الآراء كثيراً حول الموقف من هذه الاحداث لكن الشيء المؤكد انها أخافت الكثيرين .. واربكت الاحتلال وكبار اعوانه إلى درجة دفعت جورست إلى ان يكتب في تقريره عن عام ١٩١٠ « واضح ان ذوي الامزجة العصبية الذين يتلقون يومياً رسائل تتهددهم بالقتل قد يستولي عليهم الرعب من جراء ذلك ويحتمل ان يتحولوا عن القيام بواجباتهم اذا كانوا من موظفي الحكومة » (١) .

---

(١) جورست — المرجع السابق — ص ٨٣ .

وكان رد الفعل عند الاحتلال عنيفاً ، فدارت ماكينة الارهاب الحكومي وفتحت المعتقلات وصدر قانون النفي الاداري وقانون المطبوعات وعدلت مواد كثيرة في قانون العقوبات .. ويصف احد الباحثين الحالة قائلاً « وقد انتشر الرعب والفزع بين الناس من جراء حركة الاعتقالات الواسعة والقبض على الكثيرين وتفتيش المنازل وابعاد العديد إلى خارج البلاد »

وهكذا عنف ثوري وعنف رجعي يتصادمان معاً .. والنتيجة خمور حركة الحزب الذي لم يكن مستعداً ولا قادراً ولا قائماً على اساس كهذا .. وتسارع الكثيرون من اعضائه إلى الفرار من صفوفه .. فعندما يدوي الرصاص وتنصب المشانق لا يكون هناك مجال لاي متردد او معتدل او حتى مناضل وطني عادي .

وكانت النتيجة الحتمية .. ضعف حركة الحزب وذبولها إلى أقصى مدى .. وتأتي أحداث ثورة ١٩١٩ لتجد الحزب غائباً إلى درجة مكنت سعد زغلول من اقتناص الفرصة دون منازع تقريباً .

• • •

- ٦ -

المأساة

.. وثمة مآسي كثيرة ، وخاصة عندما نستعرض شريط احداث وطن بأكمله عبر سنوات كانت تجري فيهما صياغة الشخصية المصرية في تكوينها المعاصر ..

ثمة مآسي كثيرة تعترضنا عندما نتحدث عن حزب كالحزب الوطني وزعيم كمحمد فريد ، فالنضال كما فهمه فريد كان معاناة صرفة ، وتضحيات متتالية ، وتحد للمخاطر ، وكان لا بد لمآسي كثيرة ان تقع ..

لكن المأساة الحقيقية كانت الهجرة ..

زعيم يترك شعباً أحبه وارتبط به ، وتعلق بأهدابه ، وسار في ركابه ، وارهف آذانه ليستمع منه إلى نغمات النضال الذي يذوب شوقاً في حب الوطن .. زعيم كفريد كان بالنسبة للشعب الملهم ، وبالنسبة للحزب الاب والزعيم والمخطط والمنظم .. كيف يهاجر ؟ ويترك هذا كله خلف ظهره ؟

ذلك هو السؤال المحير ..

والذي تتوقف أمامه أية دراسة عن فريد ، ثم تحاول ان تنسج المبررات ، فانت عندما تقترب من فريـــد وتستشعر اخلاصه الدافق واصراره وشجاعته ، واستعداده الجاد للتضحية بكل شيء في سبيل الوطن ، لا تملك ان توجه اليه اي انتقاد .. وبصراحـــة اكثر لا تملك الا ان تفتش عن المبررات .. اي مبررات .

فهناك أولاً حبل الارهاب المتصل والمتصاعد والذي عززته سلسلة من التعديلات التي أدخلت على قانون العقوبات وقانون المطبوعات وقانون النفي الاداري ... الخ

وهناك ذلك الايمان القديم والعميق المترسخ لدى زعامة الحزب منذ البدايات الاولى بأهمية العمل في الخارج وحيويته .

وهناك الثقة في ان الهجرة مؤقته .. وان احداث وقوى خارجية ستطيح بالنفوذ الانجليزي في مصر ..

ولقد نجهد انفسنا فنجد مبررات اخرى كثيرة .. لكننا نعود فنتذكر كلمات قرأناها في فصل سابق من رسالة وجهها احد اعضاء الحزب إلى فريد وهو بالمنفى يقسم له فيها لو انه علم ان هجرته كانت ستؤدي إلى كل هذا الضرر لألقى القبض عليه بنفسه وسلمه للبوليس ..

والغريب ان فريد لم يهاجر وحده .. بل ان كثيرين من قادة الحزب وكوادره هاجروا قبله او بعده .

والكوادر التي هاجرت كثـيرة .. البعض فراراً من الاضطهاد .. والبعض سعياً وراء العلم في الجامعات الاوربية كمهمة وطنية والبعض الآخر مدفوعاً بضرورة البحث عن العمل

فالوظيفة في ظل الاحتلال عار ومذلة هكذا أكد فريد اكثر من مرة ..

ومصر – ذلك الحين – لم يكن بها مجالات كثيرة للعمل خارج الحكومة ..

والكثير من الشبان اعضاء الحزب من أسر برجوازية صغيرة او متوسطة او ابناء فلاحين أغنياء ومتوسطين .. والتعليم بالنسبه لهم ضرورة اقتصادية كي يبني لنفسه مستقبلاً .. فلا مجال للاختيار . اما الوظيفة واما الهجرة ..

اما القادة فكان اول من هاجر منهم عبد العزيز جاويش (١)

ويحاول جاويش – فيما بعد – ان يبرر هجرته فيقول «خرجت لكيد عمله سعيد باشا (وزير الداخليه اذ ذاك) لانه حينما اعيته الحيل دبر لي أمراً وأراد أن يبطش في شخصي بالحزب الوطني كله كما فعل ذلك غير مرة من قبل .. وقد تهيأ وتأهب للوثوب ودبر أمراً فظيعاً، أقول انه فظيع يعرفه أفراد أحياء يرزقون .. فلما رأيت الامر يكاد يفضي إلى ما لا نحب وإلى اعتقالي ، رأيت ان اخرج لافراراً ولكن استعداداً ، كما يحصل في الحرب من التقهقر الذي لا يكون الغرض منه الفرار » .

(١) أنور الجندي – عبد العزيز جاويش – المرجع السابق ص ١٢٢ .

ان العبارة السابقة توضح ان جاويش يبرر ويلح في التبرير والاستشهاد بآخرين الامر الذي يوحي ان لوماً كثيراً قد قيل بهذا الصدد ..

ويمضي جاويش في تبريره لهجرته « ان ما يحبب إلى الانسان الاقامة في وطنه أمرين: التضامن والعدل ، فاذا تقرضت فيه اركان العدل مالت النفس إلى مغادرته إلى غيره ، لا انسلاخاً منه ولا كراهيه له ، ولكن قد تلجيء الضرورات المرء النزوح عن بلده وهو أشد ما يكون تعلقاً به وتذكراً له واشفاقاً عليه [1]

وبعد جاويش بشهر هاجر فريد ، وفي اعقابهما هاجر العديد من قادة الحزب . عبد الملك حمزه ، اسماعيل كامل ، عوض البحراوي ، الدكتور احمد طاهر ، محمد فؤاد سليم .. الخ .

* * *

لكننا يتعين علينا ان نتوقف قليلاً لنفحص بصورة متأنية مسألة هجرة فريد بالذات .. فان أحد الدارسين المتخصصين في تاريخ محمد فريد وهو الاستاذ صبري ابو المجد يقول « ويراودني شك كثير في ان عملاء الخديوي هم الذين أوحوا لفريد بأن الحكومة ستقبض عليه وزينوا له فكرة الهجره من مصر ، وذلك لابعاده عن قيادة الحركة الوطنية تمهيداً للقضاء عليها » [2]

(١) الأخبار – ١٩٢٢/١٢/٣١ .

(٢) المصور – ١٩٦٩/١١/١٤ – صبري أبو المجد مقال : ألحركة الوطنية المصرية بقيادة محمد فريد .

وهذا محتمل .. خصوصاً اذا ما راجعنا في المذكرات الخطيه لفريد والتي كتبها في المنفى ، اسماء الذين ساعدوه على تنفيذ فكرة الهرب والتخطيط لها .. فان بعض هذه الاسماء كان قريباً من الخديوي ..

لكن سؤالاً آخر يثور ..

تثيره بعض الملاحظات المتناثره التي جمعناها خلال دراستنا لهذه القضية والتي توحي بان تلفيقات كثيرة كانت تحاك بهدف سوق فريد إلى السجن باي حال من الاحوال سواء في المرة الاولى او في المرة الثانية .. الامر الذي دفع فريد الى الاحساس بأن لا مهرب من السجن المتصل .. سوى الهجرة ..

فهل كتب فريد فعلاً مقدمة ديوان « وطنيتي » التي حوكم بسببها ؟ ومن هو « الغاياتي » صاحب الديوان وما هي حقيقة مواقفه من الحركة الوطنية !

الاجابه على هذا السؤال قد تفسر لنا الامر ..

ونحن نلاحظ انه عندما بدأت النيابه التحقيق سارع الشيخ « الغاياتي » ، بارسال خطاب إلى الاهرام يقول فيه « اما والله انهما — يعني فريد وجاويش — لأبعد عن سوء ما يظنون ، وأبرأ الناس من اسراري وغاياتي . ماذا جنيا وقد جئتهما راجياً ان ينفحاني بكلمات من كلماتهم الحكيمة في الشعر . وقد سألتهما اجابة هذا الرجاء المرة بعد المرة » ..

كان الغاياتي يلح في طلب مقدمة لديوانه .. والح المرة تلو المرة ..

لكن ما هو الجانب الاخر من الصورة .. عندما أثيرت القضية كتبت « البلاغ المصري » لسان حال الحزب الوطني في ذلك الحين تهاجم الغاياتي وتتهمه وتنفي ان فريد كتب المقدمه موضوع المحاكمة .. تقول جريدة الحزب « نريد ان نشرح للأمة المصرية في هذا المقال تاريخ الغاياتي — نريد ان نبصر الشعب المصري بمن أثار هذه الفتنه الكاذبة ، وأراد ان يحدث في البلد المطمئن شغباً وفي الاندية والمجالس الخصوصية لغباً » وبعد ان تصف الجريدة الغاياتي بأنه غبي وجاهل تختم مقالها قائلة « اما وقد نشر الغاياتي كل منظوماته ، ودس تلك المقدمة الدنيئة التي كتبها بخطه في كتابه ونشرتها احدى الجرائد (المؤيد) فاني لا أظن هذا الرجل الا مأجوراً على عمله هذا من جانب تفيده هـــذه الدسائس » [1]

واذا جاز لنا ان نلجأ إلى الافتراض .. فهل يمكن القول بأن « الغاياتي» الح في طلب المقدمة اكثر من مرة وفريد يعتذر .. وربما سمح له ان يكتب بنفسه موضوعاً ويوقعه باسم فريد فلما صدر الديوان سارعت « المؤيد » لتنشر المقدمة كجزء من المخطط . وفريد لم يكذب انه كاتب المقدمة ..

وتأتي المحاكمة فلا يستطيع التكذيب فقد سكت عليها

(١) البلاغ المصري ١٩١٠/٧/٢١ .

منشورة وقبلها منسوبة اليه ..

هل يفسر هذا الافتراض نفي جريدة الحزب ان فريد كتب المقدمة ، وهل يفسر اصرارها ان الغاياتي « دس تلك المقدمة الدنيئة التي كتبها بخطه » .. بل هل يفسر موقف فريد السلبي تماماً في التحقيق فهو لم يدافع عن المقدمه ولم يبررها ولم ينف نسبتها اليه واكتفى بقوله « انها تقريظ عادي » .

واخيراً .. هل يملك المؤرخ حق الافتراض !

ولكي تكتمل الصورة يتعين علينا ان نقول انه وبعد ان اكتملت المؤامرة وهجر فريد وجاويش .. وبعد ان وجهت الضربات تلو الضربات إلى الحزب .. كشف « الغاياتي » عن وجهه سافراً وما لبثت اعمدة الصحف ان شهدت هجوماً عنيفاً منه ضد فريد وضد الحزب الوطني .. وهو يصوغ هجومه الغادر نثراً « اولئك النفر الذين فرقوا عناصر الامه وذهبوا بريح الاتحاد بين بنيها ، اولئك هم شر البلاد وويلها الاكبر وهم الواغون عليها ، الدخلاء بين بنيها . »

ويصوغه شعراً ..

والذنب كل الذنب ليس على فتى
الفته بين المجرمين جدود
الشيخ يغضب إن حباك ثناءه
وعليه يثنى ان هجاك فريد

ما سار الا في سبيل هـــواهما
هـذا يسايـره وذاك يـقـــوده
الحزب يدعو والهوى يسري بـه
وحجاه بـــين مضلليـــه شريـــد
حتى اذا القـانـون رام قصاصـه
قالوا ارتحل عنـا فسوف تعـود
قم لا تقم في مصر واعصى قضاءها
انـــا وإن لم تـــبـــغ ذاك نـــريـد
هذي مشيئتنا فهـاجـر يـا لهـــا
من هجرة لك بـــعـــدهـــا التمجيد
ان الحوادث انبـأتني انكـــــم
وان اعتـزيتم للرجــــــال قـــرود
تـرجون اصلاح البـلاد وانتمـو
حـرب عـلى الاصـلاح وهو وليد (١)

.. في ظل هذا المناخ الذي تلفق فيه التهم وتحاك بمثل هذه البراعة لتقود الزعيم إلى السجن المرة تلو المرة .. هل كان من الممكن الاستمرار ؟

.. وايا كان الامر فقد هاجر فريد مقتنعاً انه لا مفر مـن الهجرة ..

ويعلق مؤرخ امريكي على آثار هجرته قائلاً « غير ان اكبر

(١) المقطم ١٩١٢/١/٩ .

صدمة للحزب الوطني في مصر كانت فقد قادتهم . فمما يؤسف له ان كلا من محمد فريد وعبد العزيز جاويش اختارا في عام ١٩١٢ النفي على مزيد من احكام السجن في مصر ، مما جعل رجال الحزب الوطني في غياب قادتهم ينقسمون إلى جماعات صغيرة متنازعة . ولو ان محمد فريد بقي في مصر ، متحملاً مشاق الاستبداد البريطاني ، مقاوماً محاولات الخديوي ، لابقى على تماسك الحزب الوطني ، ولقاد الثورة متى حدثت [١]

* * *

وكانت الهجرة بداية لمعاناة متعددة الجوانب ..

اشدها الشوق الملتهب للوطن ولأرضه وللحزب والزملاء وللاسرة والابناء .

وفي ٣ يوليو ١٩١٣ يكتب فريد في رسالة لاسرته عبارة دامية « لا تمضي ليلة بدون أن أرى في المنام انني في مصر ، وفي منزل شبرا في حالته الاولى ، وارى اخوتي واولادهم .. وهذا حقيقة امر غريب » [٢] .

ولعل حنينه إلى ارض الوطن يتجسد بصورة درامية في

---

(١) المصور ١٩٦٩/١١/١٤ - آرثر جولد سميث مقال : الزعيم محمد فريد في نظر مؤرخ أجنبي .

(٢) المصور - ١٩٦٩/١١/١٤ - عبد الخالق فريد مقال : أبي كما عرفته في رسائله الينا .

تلك العبارات التي تحدث بها وهو يجود بآخر انفاسه « فان مت فضعوني في صندوق واحفظوني في مكان امين حتى تتاح الفرصة لنقله إلى وطني العزيز .. الذي افارقه وكنت اود ان أراه » .

.. وكانت هناك الازمة المالية الطاحنة التي عانى منها فريد كثيراً خلال السنوات السبع التي قضاها في المنفى ..

وفريد هو سليل الاسرة الارستقراطية العريقة التي تحدثنا عنها في أول صفحات هذا الكتاب ، وهو الذي ظل ينفق الكثير والكثير من ماله على الحزب .. وعندما اشفق البعض من كثرة ما ينفق واقترح عليه عمل اكتتاب من اعضاء الحزب لتغطية النفقات امسك بسلسلة ساعته الذهبية وقال في كبرياء « ما دامت هذه هنا فلا مجال لاي اكتتاب » .. فريد هذا كتب في اغسطس ١٩١٣ رسالة إلى اسرته يقول فيها « اني اعتدت على الاقتصاد واصبحت اعيش بمبلغ ما كنت اظن ان احداً يعيش به فالحمد لله على الشدة التي علمتني قيمة الدراهم وكنت اصرف منها احسانات في الشهر الواحد اكثر مما اصرفه على نفسي الآن ، وفي اكتوبر يكتب رسالة أخرى « من الغريب انني اعتدت على هذا الضيق حتى اصبح عادة بعد ان كان لا يكفيني لمصروف جيبي فسبحان مغير الاحوال » .

وفي ٥ ديسمبر ١٩١٣ يكتب إلى اسرته رسالة حزينة محزنة مليئة بالشجاعة فهو يطلب إلى الله « تقريب وقت اجتماعنا بالاستانة لنكون معاً ، فيقل المصروف ، ونقضي مـــا بقي لي

من العمر في راحة نسبية ، اما انا فلن اتزعزع مهما صادفتني من الصعوبات حتى ولو تألمت من الجوع ولا اخضع ، ولا اتحول عن مبدئي ولا ابيع شرفي مهما كانت الحالة » ويوقع رسالته » الحزين لبعدكم » [1] .

وفي ١٩١٣ كان فريد يستعمل عبارة « حتى ولو تألمت من الجوع » كصيغة من صيغ المبالغة .. وبعدها بسنوات كان فريد يعاني فعلاً من الجوع ..

ويرسل فريد رسالة اخرى إلى عائلته « تضايقني المسألة المالية مضايقة شديدة فانا من يوم سفري من الاستانة لم يرسل لي ولا قرش ، بل اني اصرف مما اخذته من شركة التأمين على الحياة وقد انتهى من اسبوعين ولم يبق سوى بنتو واحد. وانتم تعلمون مما قاسيناه بالاستانة حالة الغريب الذي لم يكن معه شيء ولا يجد من يقترض منـــه .. مع العلم بأني اكتفي بطلب خمسة عشر جنيهاً شهرياً ، وهذا اقل مما يعطى لتلاميذ المدارس فضلاً عن اني مضطر مراعاة لمركزي ان اصرف اكثر منهم فاني ادفع للوكانده سبعة فرنكات غير المصاريف النثريـــة والغسيل والمزين وخلافه .. اهتموا بهذا الامر وتشددوا فيه ولو أدى الحال لانكم تقدموني على مصروف البيت » .

ولكن حتى مالية الاسرة تتبخر وتعاني هي الاخرى ..

وفريد يرسل لاعضاء حزبه من الاغنياء يلح عليهم ان

---

(١) المرجع السابق .

يساعدوه لكنهم يتهربون .. بل ان احدهم وهو من كبار الاغنياء يرسل اليه معتذراً فيقول « كان بودي المبادرة باجابة طلبكم لولا ما انا فيه من العسر حيث المحصول جعلنا لا نملك الا شجرات القطن الخضراء ، على أني مضطر للصرف على الزراعة كل اسبوع مبلغ سبعين جنيهاً ، وناهيكم بضرورة اجرة الانفار والمشتغلين بنقاوة الدودة من النوار ولهذا لن يتيسر لي الآن ارسال نقدية » .

ويشعر فريد بما هو اكثر من الاشمئزاز ويرسل إلى هؤلاء الاغنياء رسالة قاسية يقول فيها « هذا ما اكرره واعتبره والح في طلبه والا فقبض المال عن خدام الامة الحقيقيين خصوصاً في مثل هذه الظروف يكون جريمة عظمى لا تغتفر واملي ان يصلني الرد نقداً لا كلاماً بعد عشرة ايام من تاريخ هذا على الاكثر »

.. ودون جدوى كانت رسائله .. فالنقود ترتبط بالموقف السياسي العام . والاغنياء هربوا من صفوف الصدام وارسال « النقدية » يتطلب شجاعة كانوا يفتقدونها .

.. وكان فريد يعاني فوق هذا وذاك من الانقسامات والتشرذم ، التي كان لا بد لها تطرأ وسط مجموعة مهاجرة من تتنازعها ضغوط مختلفة ، وقليل منها يستطيع الصمود في وجه الاعاصير المتضاربة ، وتتلاعب بالبعض الاهواء وبالبعض المصالح ، وبالبعض الضغوط ، وسيف المعز وذهبه يستخدمان معاً من اكثر من وجهة من الخديوي المعزول ومن العثمانيين

ومن الانجليز والالمان والفرنسيين ... ويتساقط البعض تلو البعض .. ويتشاحنون ويفقدون الثقه في بعضهم البعض وكنموذج لفقدان الثقة نورد فقرة من مذكرات فريد حول اجتماع لخمسة من القيادات الاساسية « اجتمعنا صباح السبت بمسكن شفيق باشا ونقحنا صورة التقرير المراد تقديمه للخديوي ثم كتبنا منه ٦ صور لكل منا نحن الخمسة صورة والسادسة تقدم للخديوي . ووقعنا نحن جميعاً على كل الصور واخذ كل منا واحده لحفظها حجة على باقي اخوانه ان عدل او مال » [١] .

وفوق كل هذا نكون العزلة عن ارض الوطن وعما يجري فيها [٢] .

إلى درجة انه اضطر إلى تسفير مدام روشيرون إلى مصر لتجمع له الاخبار وذلك برغم تأكيداته انها تتجسس عليه لصالح الخديوي .. ثم اضطر إلى ارسال عبد العزيز افندي عمران « ليراسلنا بطريقة مخصوصة عن الاخبار الحقيقية ، او لارسال احد الاخوان المخلصين بالاخبار شفهياً » .. لكن الانجليز يقبضون عليه ويرحلونه خارج البلاد مرة اخرى .. [٣]

وتتحالف الغربة والعزلة مع الفقر وتفكك الصفوف بالخارج

(١) المصور ١٩٦٩/١١/١٤ – الخطابات السرية تروي أسرار السياسة المصرية .

(٢) محمد صبيح – المرجع السابق – ص ٣٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

لتصنع للرجل عذابات لا بد انها كانت قاسية .. بل شديدة القسوة .

ولعل فريد كان اكثر زعماء مصر معاناة .. واكثرهم صبراً على هذه المعاناة واكثرهم صموداً في وجهها ..

لكن العزلة كانت اكثر الاعداء شراسة وقسوة .

العزلة عما يجري في ارض الوطن .. والاحساس بالغربة عن الاحداث ، والنباتات المتسلقة تنتهز الفرصة لتصعد ، وتصعد منتهزة فرصة غياب الزعيم الذي شيد الصرح الشامخ صرح الرفض المصري للاحتلال .. صرح مصر للمصريين .

.. وتقوم ثورة ١٩١٩ .

ويكتب فريد كلمات لعلها كانت اشد قسوة على نفسه من اي شيء آخر « من الامور التي كانت غير منتظرة ، ما حصل بمصر – وهو قيام ثورة عامة ، اشتركت فيها الامة بجميع طبقاتها » (١)

اية معاناة هذه ؟ الرجل الذي صاغ حركة الامة ورتب خطاها ودفعها دفعاً إلى التقدم وضحى بكل شيء في سبيل هذه الحركة .. يعيش منفياً غريباً منسياً بينما الاخرون يتربعون على كراسي الزعامة ..

وبرغم ذلك ..

---

(١) محمد صبيح – المرجع السابق ص ٣٨٦ .

وبرغم ان فريد يسجل في مذكراته « اني اعتقد ان الوفد لن يتأخر عن الاتفاق مع الانجليز لو وجد منهم صدراً رحباً ، ولا يبقى يطالب فعلاً وباخلاص حقيقي باستقلال مصر التام الا حزبنا الوطني ولكننا لم نرد الان الظهور بمظهر الانشقاق فاظهرنا رضانا عن هذا الوفد وتشجعنا له مع اعتقادنا بعدم اخلاص معظم رجاله » .

برغم ذلك كله فإن فريد يرسل برقيه إلى سعد زغلول عندما يصل إلى باريس يقول فيها « نحيي فيكم الوطن الغائب ونرجو لكم كمال التوفيق » [1]

ولم يرد سعد عليه ..

.. وتكتمل حلقات المأساة .

* * *

وتكتمل ايضاً دراستنا ..

تبقى منها صفحة واحدة .. هي « رسالة الوداع » آخر رسالة وجهها فريد إلى شعب مصر .. كتبها بعد ان قامت الثورة وبمناسبة ذكرى احتلال الانجليز للعاصمة .. كتبها ليصوغ من كل معاناته كلمات حب لمصر .. وكلمات تحذير صارم لها

« اخواني المصريين الاعزاء

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – محمد فريد – المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ان الصوت الذي يناجيكم اليوم لصوت منعته الظروف عن الارتفاع في صحف مصر من نحو سبع سنوات ، ولكن منعه عن الارتفاع على ضفاف وادي النيل لم يكن عقبه تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية في عواصم اوروبا سواء قبل هذه الحرب أو في أثنائها أو بعدها ..

ان صوت هذا الضعيف لم يخفت يوماً واحداً ، ولم يتأخر عن القيام بما تفرضه عليه الوطنية طرفة عين ، بل كان يزداد قوة ونشاطاً ، كلما تراكمت امامه الموانع وتكدست العقبات .

ان هذا الصوت يناجيكم اليوم من وراء البحار ليهنىء الامة المصرية على تضافرها وتضامنها بحق امنا المظلومة مصر » .

ثم ينتقل فريد من التذكير إلى التحذير « لا تتطيروا او تفرحوا لكل ما يصل اليكم ، حتى اذا ما انقشعت سحب الاوهام وظهرت شمس الحقيقة ، لا تكون حالكم كالمسافر في الصحراء يرى السراب فيظنه واحات غناء ، فاذا ما وصل اليه لا يجده شيئاً ، واياكم ان تنسوا عبر التاريخ ، وليكن دائماً امام اعينكم فمنه تعلمون الحقيقة ولتنتظروا خاتمة الاعمال لاصدار حكمكم عليها . »

.. ويختم رسالته .

« فسلام عليك ايها الوطن المفدى سلام على النيل وواديه ، سلام على الاهرام وبانيه ، سلام على خدام مصر المخلصين ،

سلام على شهداء الحريه .. »

والرساله مؤرخه في ١٤ سبتمبر ١٩١٩ .

وتوقفت دقات القلب العظيم في ١٥ نوفمبر ١٩١٩ .

وكأنه كان يدرك انها رسالة الوداع .. !

* * *

المـراجع

أ ـ مراجع عربية ومترجمة

ـ احمد رشاد ـ مصطفى كامل ـ حياته وكفاحه .
ـ انور الجندي ـ عبد العزيز جاويش .
ـ انيس صايغ (دكتور) ـ الفكرة العربية في مصر
ـ بوندرافسكي ـ سياستان ازاء العالم العربي .
ـ جاكوب لاندو ـ الحياة النيابية والاحزاب في مصر ـ ترجمة سامي الليثي .
ـ حسين النجار (دكتور) ـ لطفي السيد .
ـ رشيد رضا ـ تاريخ الاستاذ الامام .
ـ رفعت السعيد (دكتور) ـ تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر
ـ رفعت السعيد (دكتور) ـ الاساس الاجتماعي للثورة العرابية .
ـ رفعت السعيد (دكتور) ـ تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥

- رفعت السعيد (دكتور) - عصام الدين حفني ناصف .
- روزنشتين - دمار مصر - ترجمة احمد شكري .
- زكي فهمي - صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر .
- صبري ابو المجد - امين الرافعي .
- صلاح عبد الصبور - قصة الضمير المصري الحديث .
- عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد .
- عبد الرحمن الرافعي - نقابات التعاون الزراعي .
- علي الدين هلال (دكتور) - السياسة والحكم في مصر - العهد البرلماني ١٩٢٣ - ١٩٥٢
- علي فهمي كامل بك - سيرة مصطفى كامل .
- فتحي رضوان - مصطفى كامل .
- فتحي رضوان - مشهورون منسيون .
- محمد انيس (دكتور) - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ .
- محمد صبيح - مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية .
- محمد سيد كيلاني - السلطان حسين كامل - فترة مظلمة في تاريخ مصر .
- محمد علي غريب - محمد فريد ، الفدائي الاول .
- محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية .
- محمود ابو الفتح - المسألة المصرية والوفد .
- محمود ظاهر العربي - هذا المجتمع الظالم .
- مصطفى كامل - اخطار الاحتلال الانجليزي .

- مصطفى كامل – المسألة الشرقية .
- روجه لامبلان – في سبيل الاستقلال – مصر وانجلترا – ترجمة ميخائيل بشارة داور .

ب – مذكرات ووثائق وتقارير حكومية :

- آثار مصطفى عبد الرازق – تقديم علي باشا عبد الرازق .
- احمد شفيق باشا (مذكرات) .
- احمد لطفي السيد – قصة حياتي .
- عبد الرحمن الرافعي – مذكراتي ١٨٨٩ – ١٩٥١ .
- مذكرات محمد فريد – القسم الاول – تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية . حققه وقدم له .. د . رؤوف عباس :
- محمد شكري الكرداوي – مذكرات خمسة وخمسون شهراً في مخبىء .
- مجموعة الاوامر العالية لعام ١٨٨٦ .
- محفوظات الجمعية العمومية لدور انعقاد عام ١٩٠٩ .
- رسائل مصرية فرنسية – ترجمة علي فهمي كامل .
- آلدن غورست (السير) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان عام ١٩١٠ .
- كتشنر (الفيكونت) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان عام ١٩١٣ .

– كتشنر (الفيكونت) – تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر والسودان عام ١٩١٣ .

— Oeuvres des Congrès National Egyptien, tenu à Bruxelles, 1910.

جـ – دوريات

– الاخبار ١٩٢٣
– افاق عربية ١٩٧٧
– الاهرام – ١٨٩٥ – ١٩١٩
– البلاغ المصري – ١٩١٠
– الجريدة – ١٩٠٧
– الطليعة – ١٩٦٩
– العلم – ١٩٠٩ – ١٩١١
اللواء – ١٩٠٧ – ١٩١١
– المصور – ١٩٦٩
– المقطم – ١٩٠٧ – ١٩١٥
– المؤيد – ١٨٩١ – ١٩١٤
– الموسوعات – ١٨٩٩ – ١٩٠٠
– الهداية – ١٩١١
– الهلال العثماني – ١٩١٢
– الوطن – ١٩١٥

– الوقائع المصرية – ١٨٨٨ – ١٩١٤
– اجيبسيان ميل – ١٩١٩
– ليتندار أجيبسيان ١٩٠٧
– النوفيل – ١٩١٠ .

د – مراجع اجنبية

— Alexander — The truth About Egypt.

— J.M. Ahmed — The intellectual origine of Egyptian Nationalism.

— Lloyd — Egypt Since Cromer.

— P.J. Vatikiotis — The Modern History of Egypt.

— Valantine Chirol (Sir) — The Egyptian Problem.

فهرس كتاب (محمد فريد) تاريخ المصريين

الفهرس

● صدر من هذه السلسلة :

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ــ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ــ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى
عليه عبد السميع

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ــ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ٢
توفيق الطويل
٢٤ ــ الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
٢٥ ــ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
٢٦ ــ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على
٢٧ ــ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
٢٨ ــ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
٢٩ ــ مصر فى عصر الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف
٣٠ ــ الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى
٣١ ــ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
٣٢ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى
٣٣ ــ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى
٣٤ ــ تاريخ العلاقات المصرية الغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ــ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنه

عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ــ المجتمع الاسلامى والغرب جـ ٢

ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ــ الشيخ على يوسف

تاليف : د. سليمان صالح

٣٨ ــ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ــ قصة احتلال محمد على لليونان

د. جميل عبيد

٤٠ ــ الأسلحة الفاسدة

د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ــ محمد فريد ــ الموقف والمأساة

د. رفعت السعيد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٩٣٨٠

I. S. B. N. 977 - 01 - 2639 - X

تتمثل أهمية هذا الكتاب عن محمد فريد فى الرؤية التى تناول بها المؤلف شخصية هذا الزعيم الوطنى الكبير . فقد تناول شخصية محمد فريد كتاب ومؤرخون كثيرون ، كما نشرت مذكراته الهامة و أوراقه عن طريق مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر الذى أتشرف برئاسة اللجنة العلمية المشرفة عليه ، وكل ذلك أضاء كثيرا من جوانب هذا الزعيم الوطنى من الناحية التاريخيـة ، ولكن ذلك كلـه تم من خلال رؤيـة المدرسة التاريخية التقليـدية ، ولم يتم من خـلال المدرسـة الماديـة التاريخية ، وهى الرؤية التى يقدمها هذا الكتاب ، والتى من أجلها قدمنا هذه الطبعة له فى سلسلة « تاريخ المصريين » .

٣٤٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب